ثلاثيّة سيرة الجمر -٢-

يوم الذعر

رواية

ابتهال الغزّيّ

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة
موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق
٢٠٠٣م - ٢٠١٧م

الاشراف العام:
اللجنة العليا لموسوعة توثيق ارهاب القاعدة وداعش في العراق
مركز بيِّنَة للأمن الفكري والثقافي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
( )

البريد الالكتروني :
www.baina.com

العراق:كربلاء المقدسة
الطبعة الأولى ١٤٤٦هـ- ٢٠٢٤ م

حقوق النشر محفوظة للأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

التصميم والإخراج الفني:
م. زهير محمد حسين الجبوري

ثلاثيّة سيرة الجمر

- ٢ -

يوم الذعر

رواية

ابتهال الغزّي

الفصل الأول

(١)

المغزل وخيوط التطريز همّا من كانا يسلّيان سارة... تلك الفتاة المدّللة في الصغر أخذت تفقد ما حولها من الترف والأحبة ؛ كومة... كومة؛ بالضبط ككبش رُبط قرب ذئب ؛ لا هو مأكول؛ لتنتهي معاناته، ولا هو مطلق العنان؛ ليستعيد عافيته وهدوء باله كبقية الكائنات...

الهدوء الذي يبحث عنه العراقيون في ظلّ صخب خفافيش داعش وأسلافهم من القاعديين والبعثيين، كان يزعج سارة... فهي وحيدة بين جدرانٍ متهرئة، لا مؤنس لها غير ذكرياتها التي كالمخرز ؛ يَغِزُها في كل هنيهة تجذب فيها نفسها على حين وجع...

كانت تجهد نفسها في تطريز ألبسة وأوشحة لا على التعيين، حتى أنّها طرّزت أشكالًا غريبة لا تُلبس ؛ لأنّها حينًا بلا أكمام... وحينًا بستة أكمام... وفي أحايين كثيرةٍ تكون بلا عنق وكأنّها تصمّم ألبسة على هيئة أكياسٍ...

في يوم من الأيام وعلى حين غفلة من سكون وحدة سارة، زارت إحدى عجائز المعسكر الذي صار مأوى للنازحين... أو لمن بقي منهم، في (قرية التلّ الأسود)؛ هذه القرية التي اكتشفها غربيو الأمس، دنّسها غربيو الحاضر، فما اكتشفته بعثة الآثار الألمانية سنة ١٩٣٤ م، دمّرته بعثة الاحتلال الأمريكية سنة ٢٠٠٣... إذ أثبتت البعثة الآثارية الألمانية أنّ هذه القرية تعود إلى عصور ما بعد عصر فجر السلالات... أي أنّها قديمة جدًّا... فلربما سعت بعثة الاحتلال الأمريكية إلى إعادة المنطقة إلى ذلك الحين؛ فكلّ شيء يبدو في هذه القرية التي استحالت إلى معسكر للنازحين كما لو أنّها في عصور ما قبل التاريخ... أكوام من الصفائح والجدران المتهرئة التي تحيط بالكائنات البشرية الموسومة بالبشر من النازحين... ممارسة الطبخ فيها على شاكلة أهل الكهوف من بشر النيادرتال... توحّش الأطفال في التعامل مع الحيوانات المدجّنة من قطط وكلاب وفئران – على الرغم من قلّتها في المعسكر– .

في ظلّ هذه المشهدية البائسة حلّت تلك العجوز ضيفةً على مخدع سارة المتهرّئ... تبادلا التحايا الباردة؛ لأنّهما على يقين أنّ الحوارات باتت باهتة وبلا طعم، فعن أي شيء يتبادلن الحديث ؛ فلا حبيب

يتباهين بغزله... أو أب يتباهين بهداياه... أو ولد يتباهين بجماله الذي لا تراه سوى الأمهات... فيومهم صار بلا تفاصيل على خلاف أمسهم المتخم بملامح الأحداث...

تنشغل سارة بمغزلها الأثير عن ضيفتها العجوز التي انشغلت عن مضيّفتها سارة بتقليب ما غزلته... تفتح الملابس المغزولة وتعيد صفّها من جديد... حتى غدت بعد حين مرتّبة على هيآت متشابهة :

الملابس التي بلا أكمام على حدة...

الملابس ذات الأكمام الأربعة على حدة...

الملابس ذات الأكمام الستّة على حدة...

الملابس التي بلا عنق ولا أكمام وكأنّها أكياس على حدة...

لم تستغرب العجوز من غزل سارة المختلف عن سابق غزلهن حين كنّا في بيوتهن، الاّ من الملابس الأخيرة ؛ تلك التي بلا عنق ولا أكمام وكأنّها أكياس، فسألتها بنبرة مستغربة باردة خالية من الانفعال المعهود في استغراب النسوة ..:

- يا ابنتي، ما هذا الشكل الغريب من الغزل؟كيف سيلبسه الناس؟وهو غير محدّد الهيئة ؛ فهل هو للصغار أم للكبار، للنساء أم للرجال ؟...

تنظر سارة باستهجان للعجوز وكأنّها سألت سؤالًا سخيفًا بلا معنى، نظرت إليها نظرة العالم الذي ينزعج من سؤال الجهلة، وبعد حين من البرود، بادرتها بالجواب... :

- هل هناك فرق في هيئة اللبس على الجثث...

تفتعل العجوز عدم فهمها الجواب الذي جاء على شكل سؤال... فتباردها باستغراب العارفين :

- لم أفهم مقصدك؟وضّحيه لي يا ابنتي...

يزداد استهجان سارة لإصرار العجوز على التغافل عن الفهم، تترك المغزل بهدوء على الأرض وكأنّها تضع وليدها البكر في مهده خشية إيقاظه بعد رقدته الملائكيّة... تلتفت إلى العجوز بهدوء تامّ على الرغم من انزعاجها... تلقي عليها بكلام طال انتظاره، وكان على شكل مساجلة... :

- هل في بيوتنا صغار يا حاجة ؟...
- لا يا ابنتي ...
- هل ننتظر ولادات جديدة في معسكرنا المعزول عن العالم ؟...
- كلا يا ابنتي ...
- هل نحن على موعد لعودة رجالنا ؟...

- ربما يا ابنتي ...
- هل هناك حبيب يراود أزقتنا كي نتباهى بمظهرنا أمامه ؟...
- لا أعتقد يا ابنتي ...
- نحن منذ أن حُبسنا بإرادتنا في هذا المعسكر الباهت ماذا ننتظر يا حاجة ؟...
- لم يعيي العجوز الجواب، بل نطقت به عاجلًا وبفصاحة تامّة... :
- الجثث يا ابنتي ...
- وهل رأيت جثّة بأكمام وعنق ؟...

لم تُجِب العجوز على استنكار سارة... عادت إلى تصفيف الملابس... وانشغلت سارة بالغزل مجدّدًا...

(٢)

(المغزلية) أكثر كتاب كانت سارة تقرأ به... ربما ختمته أكثر من ختم الزهّاد للقرآن الكريم في شهر رمضان... كلما تنتهي منه تعاود قراءته مجدّدًا وكأنها لم تقرأه من قبل... في كلّ مرة تتفاجأ من بعض المعلومات التي قد تفاجأت منها في قراءاتها السابقة... تبتسم على هيئة ابتساماتها السابقة حين قرأت المعلومات نفسها في تلاوتها الصفحات نفسها في المرات الآنفة... تحزن من عين المعلومات التي أحزنتها في مطالعاتها الفائتة وكأنّها تطالعها للمرة الأولى... (المغزلية) كان أنيسها الزائف في وحدتها التي أَلِفتها منذ أن دخلت خفافيش داعش أرض تلعفر... وبدأت معها ومع من بقي من أحبتها دوّامة النزوح حتى استقرّت في معسكر (قرية التلّ الأسود) للنازحين...

كانت تتفاجأ من أنّ أجدادها في تلعفر غزلوا مدينتهم كما تغزل هي الملابس، ولكن غزلهم لم يكن من خيوط، بل من أحجار وصخور... غزلت هي ملابسًا للجثث المنتظرة، أما أجدادها فغزلوا

مدينتهم (المغزلية) على شكل بيوت ؛ ليكونوا هم جثثها بعد حين...

تفاجأت سارة حقًّا من أنّ (المغزلية)هي من أشهر المدن التلعفرية في العصور الحجرية الحديثة... وكانت تحدّث نفسها في كلّ مرة تعاود قراءة الكتاب نفسه... :

هل كان لأجدادي مغزلًا كمغزلي كي يستعينوا به على بناء بيوتهم ؟... وكيف يبنون مدينةً بمغزل ؟... مؤكد أنّ مغزلهم كان كبيرًا وقويًّا حتى يستعينوا به على بناء الغرف والبيوت ؟...

تنتبه إلى مناجاتها المضحكة؛ فتبتسم محدِّثةً نفسها كالمجنونة – همسًا –... :

- هل يبني المغزل بيتًا يا مجنونة ؟... كأنّ وحدتي ألبستني جنونًا باردًا...

تنتهي من ابتسامتها المكررة عند الموضع نفسه من قراءتها الكتاب ذاته... تعود إلى المطالعة... تشرد مع كلماته كشرود المحبوبة في رومانسية جامحة مع أول خطاب غرام لحبيب مراهق... تتوقف عند معلومة قرأتها سابقًا، ولكن يبدو على ملامحها أنّها تقرأها لأول مرّة... تغزوها ملامح الحزن عند هذا الموضع بالذات من الكتاب نفسه...

تضع الكتاب مثل كلّ مرّة على فخذها الضامر كأي فخذ لأُناس نازحين... تتأمل سقف مخدعها الآيل للخراب... تحدّث نفسها بمرارة ... :

- هل حقًّا كنتم يا أجدادي على هذا الفكر الهندسيّ الفخم ؟... بحيث علّمتم العالم على خريطة البناء الشرقي المشهور... غرف محيطة بفناء واسع يكون متنفّسًا للعائلة...

يزداد تعلّقها بالسقف وهي تتأمل نجواها... تزداد حسرتها الحرّى وهي مستمرّة بمحادثة نفسها... :

- أجدادي قد هندسوا مدينتهم (المغزلية) فأين أنت يا (سليم) يا مهندس حياتي بعد أن غادرها خطيبي الأول محمد حين غيّبه المندسّ طارق، ولحقت به أمه العجوز كمدًا وحزنًا .. هل يهندس أجدادنا (المغزلية)؟ لتتركني يا (سليم) ومغزلي الوحيد... لقد مللت من الغزل وخيوطه يا حبيبي، طال انتظاري لخيط عودتك الذي لا أريده أن ينقطع، فتراني أتشبّث بخيوط مغزلي...

تضع سارة كتابها الأنيس بلا أنس (المغزلية) على رفّه الأثير... تحتضن (مغزلها) حضن البنت المشتاقة إلى حبيبها وتعاود غزل الخيوط...

الفصل الثاني

(١)

كعادته، المهندس سليم يختم أسبوعه بزيارة القبور الرّمزيّة التي صمّمها قرب قبر أبيه المغدور في مقبرة (قره تبه) البديلة، يرشّ ماء الورد... يشعل البخور على قبورهم قبرًا قبرًا... يقرأ سورة يس بصوت عالٍ... هو لا يرى صوته جميلًا، ولكن زوّار القبور الّذين يزورون موتاهم بين مدّة وأخرى يصغون إلى صوته، وغالبًا ما يبكون؛ لأنَّ صوته شجيّ، ازداد روّاد هذه المقبرة بعد عام ٢٠١٤م من أهالي مدينة التلال (تلعفر)، فأهالي تل الرماح... ومن بقي من سكنة تل (طايه)... والناجون من بشر (تل أبو مايا)... والباقون من أهالي تلول الثلاثيات حتى منطقة النصف تل (يارم تبه) كان يدفن أهلها موتاهم كبقية مدينة التلال في مقبرة (قره تبه) البديلة ؛ لأنّ خفافيش داعش ومن قبلهم زمر تنظيم القاعدة وأزلام البعث المنحلّ كانوا يعيدون قتل الجثث بعد قتلها الأول على طرق الموت التي شيّدوها بحقدهم ؛ هذه العصابات التي لم تكتفِ بإساءتها للإنسانية

وقيمها، بل أساؤوا إلى الأشكال الهندسية أيضًا، فحوّلوا الدائرة إلى دائرة الموت، والمثلث إلى مثلث الموت، والمربع إلى المربع الأول من الهمجية والنذالة، هذه العصابات عاثت بكل شيء دون هوادة، فهم كالملوك ؛ كلما دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزّة أهلها أذلة...

بعد أن قرأ سليم الفاتحة على الأرواح واحدًا واحدًا، جلس عند قبر أبيه، وأخذ يحدّثه في كلّ مرّة... يخبره بما يجري في الحي، ويعيد قصّة ما جرى، وينشر مخاوفه ممّا سيجري على مسامع أبيه الذي يعتقد بأنّه يسمعه، ويرد عليه، فأبوه شهيد مغدور على طريق الإمام الحسين عليه السلام... :

- يا أبي، الأمور ليست على ما يرام، أحياؤنا باتت أحياءَ هلع، كلّ شيء فيها مخيف، حتى اللّيل لم يعد للعشّاق منه نصيب؛ فالرجال إمّا تحت الأرض أو خلف السواتر على الأرض، أخذتهم رصاصات الحاقدين، أو يجتنبونها، أو ربّما ستحوشهم عن قريب، الجميع هنا تحت رحمة خوفه...
- أتعلم يا أبي، أنّ رفاقك؛ جميعُهم غادرونا؛ ترافقُني همومي، صديقُك المُسنّ الشيخ شهاب أبو مؤمّل قد مات كمدًا على حفيده المراهق الذي خرج فرحًا من المدرسة الابتدائيّة يحمل شهادته؛

وهو ناجح، ولكن الانتحاريّ من زمرة تنظيم القاعدة كان له بالمرصاد، أخذه هو ورفاقه بكبسة زرّ واحدة، لم ينتهِ مجلس عزاء حفيده حتى انتهت حياته معه، كان يرى فيه مستقبل ولده مؤمّل الذي غاب في رحلة زيارة إلى كربلاء في إحدى ليالي الجمعة؛ فكما تعلم أنّ ليلة الجمعة هي ليلة حبيب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم؛ هي ليلة الإمام الحسين عليه السلام... كلّنا نذهب إلى كربلاء من أجل تجديد العهد واستنهاض الهمم؛ فمن غيرِ الحسين عليه السلام لا يمكن أن نقاوم شظف الحياة وصعوبة الدّنيا وبلاءاتها المتكوّرة على رؤوسنا كعمامة زاهد؛ لا يرى صاحبها من الدّنيا غير العذاب الذي يتلذّذ به...

- أعتذر يا أبي، أنّي تجاسرت على مساحة حبّك؛ فأنت أعلم مني بطريق زيارة الحسين عليه السلام ورفاقك من شهدائه... فأنت ممّن راح فيه... واصطادتك ذئاب التكفيريين الوحشية ليلة الجمعة... من المؤكد أنك الآن تجالس مؤمل ابن الحاج شهاب ؛ فهو شريكك في الصيد والمحنة...
- يا أبي، سأكمل لك الأخبار في الجمعة القادمة؛ لأنّي على عجل هذه المرّة؛ إذ عليَ العودة إلى بيتي... أقصد ثكنتي فهي أحلى بيت

لي بعد أن غاب تحت ظلال الغاشمين...

- استودعك الله يا أبي...

يقرأ الفاتحة على أنّها آخر هديّة يضعها بين يدي أبيه... يتراجع إلى الخلف كي يسيرَ باتّجاه بوّابة الخروج، لا يُعطي ظهره إلى قبر أبيه والقبور الرّمزية لمن يحبّ من الغُيّاب؛ لأنّه يراهم من القداسة بمكان... يبتعد بعض الأمتار، وقبل أن يلتفت وينطلق بمساره نحو الخروج... يتوقّف كمن لدغته أفعى على حين غفلة... يعود مرة أخرى إلى قبر أبيه مهرولًا

... يجثو على ركبتيه ويقبّله :

- أعتذر يا أبي ،هذا ما أوصيتني به؛ إذ لم أستطع الوصول إلى كربلاء إلا مؤخّرًا؛ فأنت تعلم أنّ الطّرق موصدة بسبب الدواعش... خلفاء القاعدة والبعث... هذه قارورة ماء من ماء العلقمي فيها عطر قائدِنا الهمام أبي الفضل العباس عليه السلام... اهنأ يا أبي سأرشّها عند رأسك...

تأخذه شهقة بكاء؛ وهو يرشّ قارورة الماء... يمسح بها سطح قبر أبيه... يخاطبه :

- يا أبي، أوصل بعض ندى هذا الماء إلى المحيطين بك من أحبّتنا؛

إذ لم أستطع أن أجلبَ أكثر من قارورة... فأنت تعلم أنّ قليل العظماء كثير...

بعد أن رشّ سليم قارورةَ الماء عاد إلى نوبة الوداع... تراجع للخلف حتى استقرّ على دكّة شارع الخروج؛ فاستقام سويًّا وعجّل المسير...

المغيب على وشك الهطول كمطر عذابٍ، إذ تهطل معه خفافيش داعش التي لا تتحرّك إلا حين الظّلام... فهو عالمهم الكالح المظلم كقلوبهم السّوداء...

(٢)

- يستقرّ سليم في ثُكنته بعد أن أسدل الليل المظلم ستارته على الصباح... يصعب على الإنسان فيه الرّؤية لحُلْكة الجوّ الدّكناء... يستخرج هاتفه من جيبه فيجد مكالماتٍ فائتةً... يتصفّحُها واحدةً واحدة... :
- العريف خيري مكالمتان... نعم؛ لقد التقيته عند بوّابة المعسكر وأجبته عمّا أراد... فليس من داعٍ أن أتّصلَ به، وأخسرَ تعريفات الاتصال الشّحيحة...
- أهلي... آهٍ! إنّها سارة؛ لإتّصل بها وأرى ما تريد...
- لا رد... كعادتها تنام مبكرًا... حقّها فلا كهرباء ولا مسليّات... ولا زوج.... فمخيّم النازحين، أقصد معسكرهم؛ إذ لا مخيّم وقت الحرب، فالجميع في حالة عسكر... يقولها بسخريّة، ويضحك :
- نعم بلا زوج؛ فزوجها، الذي هو أنا، قابع في ثكنته، أو كما تسمّيها

هي : ضرّتي... لكنها نِعمَ الضّرّةُ... يا زوجتي الحنون...

يتصفّح سليم سجل المكالمات الفائتة؛ ليعاودَ الاتصال بمَنْ اتّصل به من دون رد...:

رقم غريب... مؤكد لا أتّصل به فما أدراني لعلّه رقم خطأ...

رقم غريب آخر... مؤكد أنّ هذا الرّقم لداعشيّ يريد أن يستفزّني؛ فهم هكذا يزعجوننا صوتيًّا حين لا يستطيعون إزعاجنا عسكريًّا، هم كالجرذان يتقنون الإزعاج ولا سيّما في الليل...

رقم غريب ثالث... حتمًا داعشي آخر...

رقم غريب ثالث... ما هذا الكمّ من الاتصالات من الأرقام الغريبة... الظّاهر اليوم الداعشيون لا ينوون الهجوم ليلًا، بل يكتفون بالهجوم صوتيًّا...

يحدّث سليم نفسه ويبتسم... قد اعتاد هذا السلوك منذ أن بات وحيدًا في ثكنته حين فَقَدَ رفيقيه؛ (سلام و حميد)... كانا من خيرة شباب الحشد... فعلى الرّغم من أنّهما ليسا من حيّه أو مدينته؛ لكنهما دخلا قلبه كإخوةٍ أحبّةٍ... كان الجامع بين قلوبهم جميعًا هو حبّ الوطن، وودّ العقيدة؛ فسلام البصري و حميد الميساني... هكذا كان يسمّيهم سليم نسبة إلى محافظاتهما اللّتين تطوّعا منهما لمجابهة داعش

بعد أن نشبت أظفارها في قلب بلدهم... نعم فحميد الميساني، وسلام البصري كانا يتدافعان على أخذ نوبة بعضيهما؛ لأنّهما يقولانِ دائمًا :

- نحن جئنا للجهاد والدّفاع لا للنّوم؛ فَنَمْ أنت يا سليم على تراب ولايتك، ونحن نحرسك بأعيننا...

حينما يتذكّر سليم حفاوة سلام و حميد بالثكنة... ولذّتهما في المبيت فيها... والسّهر من أجل حمايتها... تغرورق عيناه من الدّمع؛ فرحًا من شهامة شباب طائفته واستقتالهم من أجل تلبية فتوى السيد علي الحسيني السيستاني التي أعلنها جهارًا من الصّحن الحسيني المطهّر الشيخ عبد المهديّ الكربلائي... هي لم تكن فتوى للشّباب المؤمن من أمثال حميد الميساني وسلام البصري، بل كانت بطاقة دعوة لحفل شهادة مرغوب فيه حدّ العشق...

تعلّم سليم من رفيقيه الرّاحلين عشق الدّفاع عن ثكنتهم... لذلك كان يرفض أيّ تعزيز من قيادته باستبدالهما بمجاهدين جدد من متطوّعي الحشد الشعبي... وكان يرد على أمر قيادته بالتّعزيز :

- سيّدي القائد، لستُ أبخلَ من رفيقَيَّ الشهيدين اللّذين كانا يتدافعان من أجل أخذ نوبتي ليلًا للحراسة... وكانا يتوسّلان بي وببعضهما بعضًا بأن يبقيا ساهرين؛ ليحقّقا حلم الدّفاع التّام الذي

يريده مرجِعهم وإمام زمانهم عجّل الله تعالى فرجه الشّريف...

ففي كلّ مرّة يحرج سليم قائده ويرفض التّعزيز... بل ويقلب مكتب القائد إلى مجلس عزاء باستذكار الشهداء؛ ولا سيّما رفيقيه حميد الميساني وسلام والبصري...

يرجِع إلى تقليب سجلّ المكالمات الفائتة في هاتفه... :

هذا رقم غريب آخر ولكن متّصل عليَ ١٢ مرّة... غريب هذا الأمر ماذا يريد... إنّه أمر لافت؛ فالدواعش المزعجون عادةً يتّصلون مرّتين كأقصى حدّ إن لم نجب عليهم، ويحاولون مع أرقام أخرى للإزعاج باللّعب على مشاعر المتَّصَل به ؛ بإخباره أنّ أخاه قد خُطف، أو أباه قد قُتل... ليس بالضّرورة يكون الداعشي عارفًا بالمُتَّصَل به، بل هو يحاول إزعاجه فحسب؛ فغالبًا ما تخيب محاولته؛ لأنّ المُتَّصَل به لا أخ له مثلًا...

لن أكترثَ لكثرة الاتصال هذه فلربّما هي ستراتيجيّة جديدة من الدواعش بإكثار الاتصال كي يضطر الموالي الجواب؛ فيحصل مرادهم من الإزعاج...

الفصل الثالث

(١)

ينام المجاهدون - كعادتهم في كلّ حين - على يقظة... بحيث تجدهم مغمضي العين، لكن القلب يقظ... هكذا كان المهندس سليم في نومته... فهو ينام صباحًا كقمر منير؛ ينتظر ليل بزوغه عاجلًا...

في بدايات إغفائه اليقظ شعر باهتزاز هاتفه الذي جعله صامتًا قبل نومه... نظر بطرف عينه إلى شاشة الهاتف فوجده رقمًا غريبًا، لم يكترث إلى ذلك؛ لأنّ الأرقام الغريبة غالبًا ما تكون أرقامًا داعشيّة مزعجة...

بعد وقت ليس بالطويل عاد الهاتف إلى اهتزازه كسابق وضعه قبل قليل... نظر بطرف عينه، وبنحو غير واضح إلى شاشة هاتفه، فوجده رقمًا غريبًا أيضًا...

وبعد مدّة من نومة شبه عميقة... فزَّ المهندس متلفّتًا حوله؛ إذ لا يريد أن يغفلَ عن عدوّه الغادر؛ فأخذه الفضول إلى تصفح هاتفه فأمسكه فوجد ستّ مكالمات من رقم غريب؛ والغريب في الأمر أنّه

الرقم الغريب الذي اتصل به مرّات ومرّات ليلة أمس...

أربك هذا الأمر المهندس سليمًا؛ فلم يستطع النوم مجدّدًا، وبقي ينتظر الاتصال مجدّدًا... وبعد مدّة ليست بطويلة رنّ الهاتّف من الرّقم نفسه... تأمل المهندس بالشّاشة قليلًا، وتمالك قوّته وضغط على زرّ الإجابة :

- السلام عليكم
- وعليكم السلام، من المتصل لطفًا؟
- أنا المترجم شريف العلي من الفريق الأممي ببغداد...
- أهلًا وسهلًا، تفضّلوا .
- هل المجيب هو المهندس سليم؟
- نعم... أنا هو... هل أخدمك بشيء؟
- مؤكد يا عزيزي نحن بحاجة ماسّة إليك...
- بحاجة ماسّة لي؟ولماذا ؟...
- نعم نحن بحاجة ماسّة جدًّا إليك... فأين مكانك؟
- وكيف لي أن أصدّقَ كلامك وأثق بك؟
- حقّك، ليس لي وسيلة أخبرك بها كي تتحقّقَ، ولكن إن أخبرتني

بمكانك؛ فلربّما أدلّك على وسيلة للتّحقّق...

- أنا في ثكنة على تماس مع العدو الداعشي...
- أها! يعني أنت في شمال بغداد؟
- نعم في شمال العراق أصلًا...
- يعني أنت في الموصل أم في منطقة أخرى من المناطق التي احتلّها داعش؟
- أنا في الشمال وحسب...
- إذًا اذهب إلى مركز قيادتك وتثبّت من معلومات رقمي؛ فأكيد رقمنا موثّق عندهم بحكم أنّه رقم أممي رسميّ...
- لا لا يحتاج؛ إذ ما عاد يهمّني إن كنت صادقًا أو كاذبًا؛ فالموت أمنيتي، وياليت تحقّقه لي...
- لا يا أخي، أنا أحتاج إليك حيًّا؛ كي نكملَ حديثك أيّها الرجل السليم؟
- ماذا تقصد؟
- ألستَ أنت مَن كتب (مذكّرات رجل سليم)؟
- نعم، وما أدراك بها؟

- ها هي ذي بين يدَيَّ...
- ومن أوصلها إليك؟
- وجدناها في إحدى الصناديق التي رُحّلت إلى الفريق الأممي المعنيّ بالتّحقيق وتقصّي الحقائق؛ فقد نقلت إلينا من الأحياء المنكوبة، ومن بين آلاف الوثائق انشدّ الفريق الأممي لمذكّراتك .
- ولِمَ مذكراتي فحسب؟
- ربّما لصدقها وواقعيّتها...
- وما المطلوب مني الآن؟
- أن تكملَ ما بدأته؛ فنحن الآن على مشارف عام ٢٠١٦ وأنت توقّفت في مذكّراتك عند عام ٢٠٠٧؛ فهناك قرابة العشر سنوات تحتاج إلى توثيق...
- وما أدراكم أنّي سأوثّق بصدق ولا أنحاز؟
- استشعرنا الصّدق في كلامك بالمذكّرات، فكيف تحرّف بعد هذا الصّدق المستشعر عن بُعد؟
- على كلّ حال؛ أنا لا أستطيع ترك ثكنتي؛ فهي حياتي .
- لكن التأريخ أهمّ من الحياة؛ فهو الذي يحفظ الحقوق .

- لا رغبة لي في تأريخكم؛ فهو لكم .
- وتأريخكم؟
- الله وعباده أولى به...
- يا أخي أنت مهندس؛ فما دخلك بهذه الغيبيّات؛ الله يسبّب الأسباب والباقي على الخلق.
- وما أدراك أنّي مهندس ؟...
- أنسيت؟لقد أخبرتك أنّ مذكراتك بحوزتي...
- على كلّ حال، ما لديّ قد قلته .
- إذًا؛ أ تمانع أن نأتيَ نحن إليك؟
- لا أمانع؛ ولكن لا تشغلوني عن ثكنتي .
- لك ذلك...
- إذًا؛ اِقدموا متى شئتم...
- أيّامٌ، ونكون عندك؛ فهلّا حدّدتَ موقعك؟
- أظنُّ أنّ تقنيّاتِكم أدقّ من توصيفي، فاعتمدوا عليها وتعالوا...
- لا تقلق سنجدك...
- أنا لا أقلق إلا من شيئين .

- وما هو؟
- أن أتركَ ثكنتي...
- على العكس.. اثبت فيها كي نستدلّ عليك بيسر... والثانية ؟...
- أن لا أُوّفق إلى الشهادة...
- هذا ليس بيدي...
- في أمان الله...
- في أمان الله وحفظه...

(٢)

عاد المهندس إلى إغفاءته القلقة... فهو لم يستمتع بهناءتها إلا قليلًا... تمدّد محتضنًا سلاحه... وغطّ في نومٍ عميق...

في ظهيرة اليوم الثاني... وفي الإغفاء القلقة التي اعتاد عليها المهندس سليم، فزّ على نداء القيادة عليه من جهاز المناداة خاصّته...

- ٣١٣ أجب، هل تسمعني؟
- ٥٠ نعم، أسمعك جيّدًا.
- توجّه إلى المقر فورًا.
- سمعًا وطاعةً... ما إن تصل التّعزيزات من الثكنة المجاورة لتأمين ثكنتي وأقدمُ...
- انسحبْ فورًا؛ فقد أبلغناهم وهم على وشك الوصول إليك.
- حاضر سيّدي

ما إن انتهى النداء حتى وصل العسكر المعزّزون إلى ثكنة المهندس سليم... يتبادلان التّحيّة ويتوجّه سليم إلى المقر القيادة...

وفور وصول المهندس إلى المقر القيادة... تمّ اصطحابه إلى مكتب ضابط كبير... رحّب به وبادله الحوار :

- معلوماتنا عنك يا مهندس (سليم) طيّبة...
- شكرًا سيّدي؛ فهذا واجبنا ولسنا متفضّلين...
- لقد جاءتني أوامر من مركز العمليّات ببغداد بضرورة تعاونك مع الفريق الأممي الذي سيصل إلى المقر قيادتنا بعد قليل...
- عفوًا سيدي، وما نوع التّعاون؟فأنت تعلم أنّ ثقتي بالغرباء ليس متينة من شدّة ما لقيناه منهم .
- هم سيصلون بطائرة مروحيّة بعد قليل، ونجلس معهم ونفهم معًا، ولكن كلّ ما لديّ هو الأمر بالتّعاون...
- لن تجدَ مني إلا الطّاعة ما دام الأمر في الاستطاعة...
- أكيد يا عزيزي... ولكن هل لديك سابق معرفة بالفريق الأممي؟.
- منذ قليل فحسب؛ جاءني اتصال من مترجمهم، وأظنّ أنّ اسمه شريف العلي...
- وماذا أراد؟...

يقصّ المهندس سليم على الضابط الكبير مجريات ما دار في الاتصال الهاتفيّ مع مترجم الفريق الأممي... وفي الوقت انتظر

الطرفان وصولَ الفريق... تلاعب الفضول بصمت الضابط، فانعكس على شكل حوار مع سليم...:

- ما أعرفه عن المهندسين عنايتهم بالأرقام والحسابات لا بالكلمات، فما الذي حفّز فيك هذه الرغبة البعيدة عن اهتمام من هم على شاكلتك ؟...

تأمل سليم قليلًا في كلام الضابط... وأحس أنّه يرغب بممارسة الحوار من شدّة صمته في ثكنته ؛ فرفيقاه قد غادراه منذ حين... :

- يا سيدي، الكلام ملح الحياة، ومن دونه لا نستشعر مرور الأحداث، ولكن للحقّ أقول إنّ المحفّز الأول لي بهذا الأمر هي زوجتي...
- أها... هل هي مؤلّفة، أو معلّمة ؟...
- هي خريجة قسم تاريخ من جامعة الموصل... وليس هذا كافيًا، فكثير من الخريجين لا يمارسون اختصاصهم من أمثالي...

ترتسم ابتسامة خفيفة على وجه الضابط ويبادله المهندس الأمر كذلك... فيتفاعل الضابط معه بالحوار أكثر... :

- أراك تغمز نفسك ؟... فأنت مهندس مقاتل...
- هذا حكم الدنيا، فكثير من خريجي بلدنا يمارسون اختصاصات

أخرى، فأنا في زمن البعث كنت مهندسًا وأبيع الخضار، واليوم في زمن أزلامه الداعشيين أقاتل... فالهندسة لم تخرج من كتب المنهج الاً لتستقر في ذاكرتي فحسب...

- إذن ما الذي حفّز التوثيق في داخل أهلك إن لم يكن الحديث عن ذلك يزعجك ؟...
- على العكس يا سيدي، فأنا بي حاجة ماسّة لممارسة الكلام، فلربما أفقد القدرة عليه إن بقيت هكذا صامتًا...
- الذنب ذنبك، إذ كلما ننسّب إليك مقاتلين ترفض...
- الأمر ليس قابلًا للنقاش وقد حدّثت عنه سابقًا سادتي المسؤولين...
- على راحتك، ولكن أتمم حديث التوثيق، فقد استهواني...
- ولكن ربّما يطول الحديث وأنت منشغل سيدي ؟...
- أبدًا... فأنا متفرّغ اليوم للقاء الفريق الأممي، وهو لم يصل بعد...
- زوجتي في صغرها كانت مدلّلة وكانت محطّ عناية الجميع... لبراءتها وجمالها الطفوليّ... وكلّما يتقدّم بها العمر، كانت تكبر في داخلها عناية الآخرين بها، فنما بداخلها عنايتها بالآخرين من باب رد الجميل... فالبراءة في العناية تؤثّر في نفوس الطيبين،

ونحن في تلعفر كذلك ؛ طيبون حدّ السذاجة...

- أها... فعلًا الطيبون ينقشون أفضال الآخرين على قلوبهم كالنقش على الحجر... أتمم حديثك إن لم تمانع طبعًا ؟...
- أبدًا ... فكان شغفها بإعادة فضل عناية الآخرين بها وعدم المساس بها على طول الخطّ، مدعاة لعشق المدينة التي أنجبت هذه الطيبة في أرواح سكناها، فعشقت زوجتي المدينة عشقًا مفرطًا حتى صار مثارًا للشغف بتخصص التاريخ، فدخلت قسم التاريخ بكلية التربية بجامعة الموصل، على الرغم من أنّ معدلها كان يؤهلها لدخول كلية الطبّ مثلًا التي كانت مطمح العوائل والطلبة كافّة ؛ لأنها كانت في الفرع العلمي من الدراسة الإعدادية.

يهزّ الضابط رأسه دلالة على التفاعل مع حوار سليم... طلبًا في مواصلة الحديث؛ إذ بانت عليه ملامح الاندماج... :

- وكانت أولى الأحداث التي جعلتني أرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتوثيق، ما قرأته من كتابات زوجتي عن حادثة حرق الجثث ؟...
- يا ستار ... حرق الجثث ؟...
- نعم يا سيدي،ألم تسمع بها ؟...

- سمعت بخبرها ولكن أجهل تفاصيلها...
- كان في حيّنا ثلاثة أطفال نشيطون ويسعون لقضاء حوائج العجائز، فطبيعة حيّنا التكاتف والعيش كأسرة واحدة... وكان هؤلاء الثلاثة أبناءٌ لآباءٍ يكرههم تنظيم القاعدة...
- أها يعني الحادثة قديمة ؟...
- نعم سيدي، كانت في بدايات سنة ٢٠٠٦...
- يعني قبل عشر سنوات تقريبًا...
- نعم سيدي... كان أبو الأول ضابطًا في الجيش العراقي، وأبو الثاني إمام جماعة المسجد الكبير في حينا، وكان أبو الثالث معلماً في المدرسة...
- العسكري وإمام الجماعة نعرف أنهما من مبغضات تنظيم البعث والقاعدة وداعش، ولكن المعلّم، هذه المعلومة جديدة علي ؟...
- نعم سيّدي، فالمعلم أيضًا كان يقلقهم، وبخاصة معلّم الإسلامية، فهم يحسبونه على محفّزات الهمم الايجابية في المجتمعات...
- أتمم القصّة فقد شوقتني...
- في ليلة كالحة كوجوه القتلة... خرج الآباء الثلاثة وأمهاتهم للبحث عن أبنائهم النشطين (علي، حسين، عباس) وضجّ الحي

برمته للبحث عنهم، حتى العجائز اللواتي كنّ يعتمدن عليهم ضجّن معهم على الرغم من صعوبة سيرهنّ... وبعد يومين من الغياب وجد كل أب من هؤلاء الآباء طبقًا كبيرًا من الرزّ نسمّيه بالمنسف وهو بسعة الصينية، ومغلّف السليفون، وعادة ما نفعل هذا الأمر في تقديم الهدايا من الطعام للجيران في المناسبات، وكان حينها حزينًا على ليلة العاشر من المحرّم وعادة ما يتبادل الناس في صبيحته بتوزيع الصحون على هذه الطريقة، وربما كان انشغال الناس بالتوزيع واعتياد هذا الشكل من الصحون فوّت على الأهالي اكتشاف مجرمي تنظيم القاعدة الذي فعلوا هذه الفاحشة النكراء...

- وما هي ؟... فقد شوّقتني...
- لقد كانت الأطباق الكبيرة الموضوعة في أبواب الآباء الثلاثة والمغلّفة بالسيلفان هي صحون رزّ موضوع على قمتها جثث الصغار المخطوفين (علي، حسين، عباس)، بحيث تم شويهم أحياء وكأنهم خراف، فحتى الخراف تنحر قبل شيّها، ولكن المجرمين شووهم أحياءً... بحيث وضعوا صحن المشوي - أي الطفل علي - بباب أبيه، وهكذا بالنسبة لحسين وعباس...

- يا ويلاه ... ما أبشعها من جريمة...
- نعم سيدي، كانت هذه الحادثة المحفّز الأكبر عند زوجتي للتوثيق، وكانت قراءتي لتوثيقها تحفيزًا لي على الكتابة مثلها...

وبعد أكثر من ساعة تقريبًا من الحوار قطع وصول الفريق الأممي حديث سليم والضابط، وأخذ الطرفان بالتعارف وحصل ما كان ينتظره الضابط الكبير من معرفة نوع التّعاون، وأنّه طابق ما نقله المهندس سليم إليه...

وتمّ الاتّفاق أن يكونَ اللّقاء بالفريق الأممي يوميًّا ظهرًا في المقر القيادة، على ألّا يتركَ المهندس سليم ثكنته ليلًا ؛ لأنّ ذلك سرّ طاقته وديمومة حياته... فوافق الطرفان...

الفصل الرابع

(١)

في ظهيرة اليوم الثاني استقدم الضابط الكبير المهندسَ (سليم)، وهيّأ له وللفريق الأممي مكانًا للتّداول... وكان الضابط الكبير حريصًا على الحضور معهم... إذ شدّه الحوار الذي جرى في اللّقاء الأوّل بين المهندس سليم والفريق الأممي...

في بَدء اللّقاء الرسمي الأوّل كان الهدوء سيّد الموقف، ولم يكن المهندسُ المبادرَ في الحديث، كما أنّ المترجم كان متهيّبًا في البَدء بالحوار أيضًا... وبعد دقائقَ من الصّمت، بدأ الضابط الكبير الحوار:

- أظنّ أنّ الأطراف كاملة الحضور، فلِمَ لا نبدأ؟
- يتشجّع المترجم للبَدء بالحوار :
- سيّد سليم، من أين تريد أن نبدأ؟
- يا سيّد شريف، يُفترض بك أنت الذي تحدّد، فأنت من طلب اللّقاء والحوار ابتداءً .

شاع جوّ من عدم الثّقة أو الارتياح بين الطّرفين الرئيسين؛ فحاول الضابط الكبير أن يبدّدَ ذلك :

- يا سيّد شريف عليك البَدء فعلًا .
- مهندس سليم، هل لك أن تحدّثني ابتداءً عن بداية داعش؟
- لست مؤرّخًا يا سيّد شريف ..
- لم أقصد ذلك بل أردت أن تعرّفَني بتنظيم داعش أكثر، أعني تعرّفني بهم من واقع ميدانيّ ؟.
- أظنُّ أنّكم أعرفُ به مني فأنتم فريق أممي دولي؟
- المعرفة من أرض الحدث أدق .
- نزولًا عند رغبتك سأقرأ بعض الفقرات من تعريف داعش من المواقع الرسمية المعتمدة في الشبكة الدولية للمعلومات .
- لك ما تريد، المهم نبدأ الحوار .
- بحسب موقع ويكيبيديا؛ فداعش هو: الدولة الإسلامية، تنظيم مُسلَّح كان يُعرف سابقًا بـالدولة الإسلامية في العراق والشام أو داعش؛ وهو المُسمَّى الذي أطلقته قناة العربية اختصارًا للاسم القديم... ولكن! هل انتبهت على أمرٍ ما في هذا التّعريف؟.
- ما هو؟
- إنّ اسم داعش هو صياغة قناة خليجيّة... فهل يوحي ذلك لك بشيء؟
- ربّما فهمت...

- على كلّ حال، نكمل: ويستمر الموقع بالتعريف بأن داعش يتّبع فكر جماعات سلفية جهاديّة وعقيدتها، وشُكِّل ابتداءً سنة ٢٠١٤ في شبه دولة سابقة غير معترف بها دوليًّا. وقد أُسِّسَ التنظيم في العراق على يد أبي مصعب الزرقاوي، إثر انتقاله من الأردن، بعد إمضائه خمس سنوات بالسّجن، في ما عُرف بقضيّة تنظيم ببيعة الإمام، إلى أفغانستان التي استقرّ فيها ما يقارب ثلاث سنوات من ١٩٩٩ إلى أواخر ٢٠٠١؛ فقد تعرّض لإصابة استوجبت نقله إلى كردستان العراق لإجراء عملية جراحية على ساقه؛ فقد انضمّ إلى جماعة أنصار الإسلام، وأسَّس سنة ٢٠٠٣ (جماعة التوحيد والجهاد) التي كانت النواة الأولى لتنظيم الدولة الإسلامية الحالي.
- هذا تعريف لا يختلف كثيرًا عمّا نعرفه في وثائقنا .
- نعم،هو تعريف متّفق عليه، وأظنّ من المناسب أن نطّلعَ على أهدافهم بحسب زعمهم ؛ لأنّ معرفة الأهداف جزء من معرفة المشهديّة برمّتها .
- وماذا يقولون عن أهدافهم؟
- بحسب الموقع السابق: يهدف أعضاؤه-بحسب زعمهم- إلى إعادة «الخلافة الإسلامية وتطبيق الشريعة».
- أها... وهل هم كذلك حقًّا؟

- بالله عليك يا شريف، هل ما قرأته في مذكراتي يدل على رائحة الإسلام لا مضمونه ؟.
- مؤكد لا، ولكن ما علاقتهم بمذكراتك؛ فهي تحدثت عن النظام البعثي البائد؟
- لا لو دقّقت في حادثة كشف الحردان ولقيطه والمتعاون معه سطام لوجدت في اعترافات الأخير: أنّ البعث صنع السلفيين، والسلفيون صنعوا القاعدة، والقاعدة صنعت داعش؛ فهم أفراخُ شرٍّ متوارثة...
- نعم تذكّرت جيّدًا ما اعترف به سطّام...
- علاوة على ما سبق؛ فداعش لم يكن طموحه العراق وسورية فحسب .
- ما كان طموحه؟
- بحسب الموقع السابق المشير إلى مصادرَ موثوقةٍ سعى التنظيم إلى نشر نفوذه في مناطق دول أخرى؛ مثل؛ جنوب اليمن، وليبيا، وسيناء، وأزواد، والصّومال، وشماليّ شرق نيجيريا، وباكستان، وموزمبيق، والنّيجر.
- إذًا هو تنظيم دولي لا محلي أو إقليمي؟
- هكذا أُريد له .

- ومن تقصد بقوله هذا؟هل هو صنيعة دولية ؟...
- إشارة إلى الموقع السابق وسلسلة من المواقع السّاندة على الشبكة الدولية للمعلومات : يرى بعض المُحلِّلين والصحفيين أنّ التنظيم صناعة أمريكيّة إسرائيلية .

يقطع الحديث هنا الضابط الكبير بحجّة الاستراحة قليلًا من أجل شرب الشاي... ويطلب من المهندس مرافقته إلى مكتبه...

يدخل الضابط برفقة المهندس إلى المكتب... يطلب منه الجلوس... :

- يا مهندس سليم، لسنا في صدد فتح الجبهات هنا على بعضنا .
- هل تقصد أنّك لا تريد الانفتاح التام على الفريق الأممي؟
- بالضبط يا عزيزي، نحن لا نعرف نيّاتهم بالدقة... فكن حذرًا بالحديث معهم رجاءً...
- ولكن ما ذكرته ليس على لساني بل على لسان محللين معتمدين في مواقع الشبكة الدولية للمعلومات ؟...
- وإن كان الأمر كذلك، ففي شريعة الظلمة : ناقل الكفر كافر، لا كما نقول نحن المنصفين...
- على ما تريد... أمرك سيدي...

(٢)

بعد مدّة وجيزة يعود الضابط الكبير بمعيّة المهندس سليم إلى غرفة اللقاء مع الفريق الأممي... حينها كان الشاي قد وصل... وما إن انتهى الجميع من شرب الشاي حتى بادر المترجمُ المهندسَ بالحديث :

- برأيك ما الهدف من هذه الصنيعة؟
- تقصد صنيعة تنظيم داعش الإرهابي؟
- نعم ومن سواه؟
- على وَفق ما يذكره موقع ويكيبيديا الموسوعي : إن الهدف من ذلك كان خلق حالة عدم استقرار دائمة بالمنطقة، باختراقه من عِدّة مخابرات دولية. ويؤيد ذلك مقال لصحيفة النبأ التابعة للتنظيم يبرّر فيه عدم استهداف إسرائيل؛ بحجّة أنّ القضيّة الفلسطينية ليست «قضيّة المسلمين الأولى»، وإنّما القضيّة الأولى هي «إقامة التّوحيد»، وأنَّ الجهاد فيها باطل، مادام سيُستبدل حكم اليهود

فيها بحكم حاكم عربيّ جديد (الديمقراطية)، واصفًا فصائل المقاومة الفلسطينية بأنّها رايات كفرية.

- هذا كلام خطِر.

ينظر الضابط الكبير إلى المهندس سليم ليذكّره بما اتّفقا عليه في مكتبه... لكن المهندس هزّ رأسه إيماءً إلى الضابط أنّه هو المسؤول عن كلامه... فترك الضابط المهندس على رسله... ويواصل الطرفان الحوار؛ إذ أكّد المهندس رأيه بقوله:

- نعم يا عزيزي، فالموضوع أكبر ممّا تتصوّر... فجذور ذلك ممتدّة للخلف كثيرًا .

- وكيف ذاك؟

- بحسب الموقع : لقيَ التنظيم اهتماما إعلاميا كبيراً وذاع صيته أوّل مرّة عالميًّا، يوم الأحد ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤، عندما أعلن أبو مصعب الزرقاوي بيعته مع من معه في «جماعة التّوحيد والجهاد» لأسامة بن لادن - زعيم القاعدة آنذاك- على السّمع والطّاعة،. مع اعتماد التّسمية «قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين»، اسمًا للتنظيم الذي بات فرعًا رسميًّا لتنظيم القاعدة في العراق. كان دوره المشاركة في العمليّات العسكريّة على القوّات التي تقودها

الولايات المتحدة والحكومات العراقية المتعاقبة، في أعقاب غزو العراق، وإبّان حرب العراق. وذلك جنبًا إلى جنب مع غيره من الجماعات الإسلامية المتشدّدة المسلّحة، في تحالف أُسِّس باسم «مجلس شورى المجاهدين» دام بضعة أشهر. كان تمهيدًا لظهور تنظيم أكبر، دمَج الفصائل المتحالفة تحت قيادة واحدة، وحدث ذلك في نهاية عام ٢٠٠٦؛ فقد أعلن مجلس شورى المجاهدين عن تأسيس إمارة إسلاميّة متشدّدة، عُرفت باسم «دولة العراق الإسلامية» ودعا إلى مُبايعة أبو عمر البغداديّ أميرًا للمؤمنين، وعُيِّنَ محارب الجبوري وزيرًا للإعلام (متحدث رسمي)، وأبو حمزة المهاجر وزيرًا للحرب. الأمر الذي واجه رفضًا كبيرًا من بعض الفصائل المشابهة لها والمقاتلة، وقد اشتبكت مع التنظيم.

بمعنى أنّ التنظيم هو وليد بعثي سلفي متشدّد؟

نعم يا عزيزي، وإشارة إلى الموقع السابق: كان للتنظيم علاقة جيّدة مع تنظيم القاعدة حتى ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٣، عندما أعلن أبو بكر البغدادي، الذي عُيِّنَ سنة ٢٠١٠ قائدًا خلفًا لأبي عمر البغدادي إثر مقتله؛ عن إلغاء (دولة العراق الإسلامية- فرع القاعدة في العراق) بنَظر الظواهري و(جبهة النُصرة لأهل

الشام–فرع القاعدة في سوريا) ودمج التنظيمين في تنظيم واحد باسم (الدولة الإسلامية في العراق والشام». الأمر الذي رفضه أمير تنظيم القاعدة أيمن الظواهري؛ ليُصدر على إثره أمرًا بإلغاء اندماجهم، وإلزام كلّ تنظيم بمكانه الجغرافي. موضّحًا أنّ البغدادي ضَمَّ جبهة النصرة تحت قيادته العراقيّة، من دون تلقّي أوامرَ، أو أخذ استشارة منه. فامتثل قائد جبهة النصرة أبو محمد الجولاني لأوامر الظواهري، وانشقّ عن تنظيم (الدولة الإسلامية في العراق والشام). على حين قطعت جماعة البغدادي كلّ العلاقات مع تنظيم القاعدة، وأنكروا وجود أيّ ارتباط معهم منذ فكّ الارتباط سنة ٢٠٠٦. وقد وضَّح أبو محمد العدناني (المتحدث الرسمي لتنظيم الدولة) في كلمتين صوتيَّتين بعنوان «ما كان هذا منهجنا ولن يكون» و«عذرًا أمير القاعدة»؛ أسباب الخلافات، ونفى كون جماعتهم كانت فرعًا تابعًا للقاعدة لكي تتلقّى أوامر منها.

- وماذا يعني هذا الانشقاق؟ أ هو تمرّد على طاعة المريدين الكبار؟ أعني أمريكا وإسرائيل؟
- بحسب الموقع السابق: يعزى انفصال التنظيمين وقيادتهما عن بعضهما لأسباب عدّة، ترتبط بنوعيّة العدوّ المستهدف،

والاستراتيجيّة المتّبعة في مواجهته، فضلاً عن اختلافات فقهيّة وفكريّة بين التنظيمين؛ وذلك برغم تقاسمها الأهداف المتوخاة من ذلك. بعد ومرور سنتين من دخول عناصره الأراضي السّورية عام ٢٠١٢، توسع نفوذ التنظيم توسّعًا سريعًا؛ ليشمل السّيطرة على المناطق ذات الأغلبيّة السنية في سوريا، مثل؛ الرّقة، وإدلب، ودير الزّور، وحلب.

- يعني القضيّة داخليّة وليست خارجيّة؟
- هذا الظّاهر من الوثائق، وإلا فالموضوع برأيي أكبر من ذلك؛ وهو خطّة لإضعاف التّشكيلات المصنوعة كلّما كبرت على إدارتها؛ فاتّساع التنظيم بهذا الحجم قد يخرج عن سيطرة المريدين الكبار؛ لذا أعادوا توزيع الحجوم في ما يختصّ بالتنظيم؛ ليكونَ على كتلتين؛ فيدار بنحوٍ أسلس من إدارة كتلة كبيرة واحدة .
- تحليل مقبول... وماذا بعدُ؟
- بعد ما ذكرناه، تذكر المواقع الرسمية؛ ولاسيما ويكيبيديا : أنّ يوم ٢٩ حزيران/ يونيو ٢٠١٤، نشرت مؤسّسة الاعتصام التابعة للتنظيم إصدارًا مرئيًّا بعنوان «كسر الحدود» ظهر فيه أبو محمد العدناني رفقة أبو عمر الشّيشاني أعلنا فيه قيام الخلافة الإسلامية.

وبناءً عليه تغيّر اسم التنظيم من «الدولة الإسلامية في العراق والشام» (يُختصر: داعش) إلى «الدولة الإسلامية»، مع تعيين أبو بكر البغدادي في منصب الخليفة. وحصل ذلك بعد سيطرتهم على مدن عدّة في العراق وسوريا وفتحهم جزءًا من الحدود بين البلدين.

- بمعنى هذه البداية الحقيقية للتنظيم؟
- نعم البداية بعد توزيع الكتلة إلى كتلتين.
- يعني أنّه تحجّم؟
- على العكس توزيع الكتل لا تعني التّحجيم، بل تعني إعادة التنظيم، وما يدلّ على كلامي أنّ التنظيم أطلق شعار «باقية وتتمدّد» للتّعبير عن التوسع الجغرافيّ غير المحدّد للحدود المادية للخلافة، بل أيضًا توسيع النفوذ العالمي بهدف تعزيز قابليّة أفكار التنظيم الجديدة وعقيدته للبقاء والاستمرار.
- وكيف يمكن للتنظيم أن يديرَ أموره ويتحوّل إلى دولة بهذا العدد القليل؟
- لا يا عزيزي! فالمريدون عملوا على التّعزيز؛ فبحسب الموقع المذكور: تمّ بحلول عام ٢٠١٥، سفر ما يقرب من ٤٠,٠٠٠ فرد من أكثر من ١٢٠ دولة إلى العراق و سوريا للقتال،وهاجر ما

يقرب من ٨٠٪ من هؤلاء المقاتلين للانضمام إلى صفوف داعش والعيش تحت حكم الخلافة - على حدّ وصفهم - مع إعلان تنظيمات وجماعات دولية مسلّحة مبايعة أبو بكر البغدادي؛ وقد أسّست فروعًا للتنظيم سمِّيت بالولايات. كما حصل على دعم من بعض العشائر في العراق ولاسيما المتضرّرة من التغيير بسبب التّأسيس السياسي البعثي واحتوائه لمكوّن دينيّ وعِرقيّ محدّد بحجّة تعرّضه للاضطهاد .

- وهل اكتفَوا بالبقاء في العراق، أمْ هل عملوا على التوسع؟
- نعم، عملوا على التوسع أفقيًّا على وَفق شعارهم « باقية وتتمدّد» ؛ إذ يذكر الموقع السابق: أنّه في أكتوبر ٢٠١٤، سيطر فرع التنظيم في ليبيا على مدينة درنة، شمال شرقيّ ليبيا وهي التي يقطنها ما يقارب ١٠٠,٠٠٠ ساكن. ليتمكّنَ مقاتلو مجلس شورى مجاهدي درنة في ١٥ حزيران/ يونيو ٢٠١٥، من هزم التنظيم واسترجاع المدينة. أما في مصر، فقد سيطر تنظيم الدولة في سيناء يوم ١ تموز/ يوليو ٢٠١٥ على مدينة (الشيخ زويد) لفترة قصيرة قبل أن تتمكّن التّعزيزات البرّيّة والقوّات الجوّيّة المصريّة من استعادة المدينة. لاحقًا في ١٣ شباط/ فبراير ٢٠١٦، أعلن التنظيم سيطرته بالكامل

على مدينة سرت اللّيبية. وفي ٢٩ مارس ٢٠٢١، سيطر فرع التنظيم في وسط إفريقيا على مدينة (بالما) السّاحليّة في موزمبيق؛ ليتمكّنَ الجيش الموزمبيقي لاحقًا من استرجاع المدينة.

- وهل عمل التنظيم على تعزيز إمكاناته إعلاميًّا؟
- نعم، فالإعلام نصف المعركة كما يُقال؛ إذ جهّز المريدون التنظيم بأعلى إمكانات التّحرير والمنتجة، حتى أصبحوا متمكّنين من شبكات التّواصل، وأصبح التنظيم معروفًا بفيديوهات -إصدارات- قطع رؤوس مدنيّين وصحفيّين وأسرى، بتهمة محاربة التنظيم والتّجسّس. وتدمير مواقع تراثيّة بحجّة أنّها أصنام تُعبد من دون الله. كما باع قطعًا أثريّة لتمويل نفقاته.
- نعم، أتذكّر أنّ الأمم المتّحدة حمَّلته مسؤولية انتهاكات حقوق الإنسان وجرائم حرب، كما اتّهمته منظّمة العفو الدولية بشن حملة أعمال تطهير عرقيّ استهدفت الأقليّات في شمالي العراق.
- وما يضرّ التنظيم ذلك، وأضيف إليك أنّ هناك جامعاتٍ وشخصيّاتٍ دينيّةً إسلاميّةً حول العالم شجبت ممارسات التنظيم وأفكاره؛ محاجين بأنّ التنظيم حادَ عن الصّراط الحقّ للإسلام، وأنّ ممارساته لا تعكس تعاليم الدّين الحقّ أو قِيَمه، كما وصفوهم بالتكفيريين ونسبوهم إلى

الخوارج. المملكة العربية السعودية كانت أوّل مَنْ أدرج التنظيم على أنّها منظّمة إرهابيّة، تلتها الأمم المتّحدة، والاتّحاد الأوروبّيّ ودوله الأعضاء، والولايات المتّحدة الأمريكيّة، والهند، وإندونيسيا، وإسرائيل، وتركيا، وسوريا، وإيران وبلدان أخرى. ولمنع تمدّد التنظيم أعلنت الولايات المتّحدة في سبتمبر ٢٠١٤، تشكيل تحالف دولي مكوّن من ستّ وثمانين دولة شمل دولًا عربيّة وإسلاميّة وأجنبيّة؛ من بينها السّعودية وإيران، للقضاء على التنظيم. وقد دعا التنظيم أنصاره لاستهداف رعايا دول التّحالف، الذي وصفه بـ «التّحالف الصليبي"، فتمّ تنفيذ كثيرٍ من الهجمات المسلّحة وعمليّات الطّعن والدّعس في أمريكا الشمالية وأوروبّا... مع كلّ هذا؛ هل انتهى التنظيم كما أرادته أمريكا؟أم هل انتهى كما أراده العراق؟

- لا أعلم .
- يا عزيزي، سينتهي التنظيم على يد العراقيين - وإن شاء الله تعالى -، سيسعون إلى ذلك ببركة الخيّرين .
- إن شاء الله تعالى... من أين نبدأ غدًا حوارنا؟
- برأيي أن نبدأَ من زيارة معسكر نازحي مدينة تلعفر المنكوبة...
- ولم نبدأ من هذه النقطة بالضبط؟

- لأنّها من المدن المنكوبة؛ وقد هُجِّرت بالكامل، وشهود عيانها كثيرون في هذا المعسكر؛ كي تسمعَ وترى مباشرة من أفواههم...
- اتّفقنا إذًا...

الفصل الخامس

(١)

أخذ المهندسُ سليم المترجمَ شريف العلي - كما وعده - إلى الحاج محسن نوّاب؛ وهو شاهد عيان من أهالي مدينة تلعفر المنكوبة؛ فهو على كبر سنّه لم يكن منكفِئًا على ذاته، بل عمل على تقديم الدّعم اللّوجستي للمجاهدين؛ فهو من سكنة هذه المدينة الطّيّبة، ويمكن معرفة تأريخها الدّامي به...

ركب المترجم سيّارة الجيب برفقة المهندس سليم باكرًا؛ لأنّ الحركة في اللّيل خطرة على الجميع بحكم خفافيش داعش وقنّاصيهم المتربّصين... فهم ينشطون كالكلاب ليلا... وينكفئون نهارًا...

لم يكن الطّريق سلسًا، بل كان وعرًا وفيه صعوبات كثيرة... فما بين حفر بسبب العبوات الناسفة التي يستهدف بها المجاهدون سيارات الداعشيين... وبين الألغام التي يستهدف بها الداعشيون سيارات القوات الأمنية... وبين الإهمال الواضح للطرق في عهد القاعدة وداعش في المنطقة، فكلّ هذا وسواه جعل الطرقات غير

سلسة ووعرة...

بعد مدّة من انشغال سليم بسياقة السيارة الجيب، يقطع المترجم صمت السّير بسؤال المهندس... :

- أيّها المهندس، هل الجوّ دومًا مشحونٌ بهذا القلق مع وجوم الخلاء... فكأنّ المكان مهجور...

يلتفت المهندس إلى المترجم مع ابتسامة حزينة :

- ليتك جئت إلى المكان قبل داعش لوجدت الناس ذهابًا - إيابًا، ولكن هذه ضريبة الحروب... تأكل السَّكِيْنَة وتزرع محلّها الوجوم...
- هل الطّريق طويل إلى الحاج نوّاب؟
- لا ليس طويلًا، ولكنني أختار الطّريق الآمن، مع الحذر في السّير؛ إذ لا نعلم متى تنفجر علينا عبوة، أو يرصدنا قنّاص الخفافيش، أو حتى يتعرّضنا بعض أزلام العصابات الداعشية...
- يا رجل لا تُخِفْني .

يضحك المهندس سليم، ويسرع بالمشي قليلًا... :

- وهل تظنّ نفسك قادمًا إلى نزهة؛ إنّها حرب، وليست كسائر الحروب؛ إنّها حرب قذرة...

- أعانني الله يا مهندس...
- أعاننا جميعًا؛ فنحن نعيش تحت ظلّه في الدّارين...

تسير الجيب بتؤدة، يزيد سليم من بطء السيارة... يتلفّت يمينًا وشمالًا... وفَجأة يزيد السرعة بجنون، ويطلب من المترجم أن يضعَ رأسه بين قدميه... ويبالغ سليم في السرعة، وبعد مدّة قصيرة، لكن المترجم استشعرها قرنًا، يخفّف سليم القيادة، ويطلب من المترجم أن يرفعَ رأسه لأنّه دخل منطقة الأمان...

حينما ينظر المترجم، يرى سورًا متواضعًا؛ ولكنه يشعرك بالأمن والسّكينة، يتوجّه إلى المهندس بالسّؤال :

- ما هذا الفناء؟
- إنّه معسكر النّازحين، وأغلبهم من مدينة تلعفر المنكوبة؛ إذ لم يرغب السّاكنون هنا في مغادرة المكان كسائر الأسر الكثيرة التي نزحت إلى مدينة كربلاء المقدّسة، أو سائر المدن الوسطى والجنوبيّة؛ ولعلّ العتبات المقدّسة؛ الحسينية والعباسية أكثر المؤسّسات التي رعت النازحين؛ ولا سيّما من مدينة تلعفر...

تدخل سيارة الجيب بهدوء تامّ... تجتاز عارض السيطرة؛ فالحراس يعرفون المهندس سليم، فهو من المجاهدين الأوائل في هذه

المعركة...

يندهش المترجم من تواضع المكان... فقره... افتقاره إلى الدواعم الإنسانية التي يزعمونها رفاهية... لكنه لم يستشف الذّلّة على وجوه النّازحين ولا الانكسار؛ فالجميع متوهّج العطاء...:

- يا سليم، بالله عليك هل هؤلاء نازحون؟
- نعم . وماذا تراهم ؟.
- لا أرى الذلّة والانكسار على وجوههم...

ينظر المهندس سليم إلى المترجم بنظرة عدم رضا :

- يا عزيزي هؤلاء من سلالة أُباة الضيم... قد أكل الألم مجسّات الانكسار؛ فما عادوا يرغبون في التّأوّه... لا تجد على وجوههم إلا العفّة والعزّة، ألم تقرأ: تحسبهم أغنياء من التعفّف... هذا مصداق ذاك...
- سبحان الله .

يتفرّج المترجم على أجواء المنكوبين غير المنكسرين ويستمتع بمشاهدات لا توصف؛ لأنّها تُستشعر...

- يا سليم، هل المكان بعيد حتى نصل إلى الحاج نوّاب؟
- لا هو قريب؛ فهل مللت؟

- لا بالعكس لا... أريد أن أصلَ كي لا أُحرَمَ من مشاهدة هؤلاء الناس الفريدين...
- ليسوا هؤلاء فحسب.. فريدين، بل كلّ أبناء الطّائفة فريدون بتفانيهم، وقوّتهم، وعزمهم...
- من أين جاءهم ذلك؟
- جاءهم من تربية المجالس الحسينية، والالتزام بخطّ الأئمّة عليهم السلام، الّذين هم امتداد لنهج النّبيّ الأكرم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم... ذلك النّبيّ الذي قال عن نفسه : ما أُوذيَ نبيٌّ كما أُوذيت... نحن سلالةُ المفطومين على الوجع، والمتقنون نهج الهلع... نحن أتباع من قال؛ وهو تحت حدّ السّيف: هيهات منّا الذلّة...
- ما أجملَه من حديث يا سليم ...
- لكن الفعل أجمل على بشاعته يا شريف...
- ها قد وصلنا إلى مخدع الحاج نوّاب... فأهلًا بك في ضيافته...

يترجّل المترجم والمهندس من سيّارة الجيب، ويتوجّهان إلى رجل كبير في السّنّ، لم تضيِّع الصّلعة في رأسه توهّج الشّيب، جالسٌ على كرسيّ مهترِئ، ويحملق في الأفق البعيد...

(٢)

على مائدة الشاي المتهالكة... ينبهر المترجم من شموخ هذا الرجل الكهل الذي لم تهزّه المآسي... فهو كما أخبرني المهندس والدٌ لشهيدٍ برتبة نقيب... وجدّ لأحفاد أكلَهم أوّلُ انفجار في تلعفر أيّامَ الطائفيّة... هو شيخ منكوب بامتياز، مع سبق الأوجاع والتّشرّد...

ينظر المترجم إلى ملامح الشيخ المهيب، ويطلب منه أن يحكيَ له بدايات تأريخ العنف في مدينته المنكوبة (تلعفر) :

ينظر الشيخ إلى المترجم نظر المستغرب :

- يا ولدي، كيف أقصّ لك تأريخ العنف في هذه المدينة، ونحن منذ ولادة جدّنا الأوّل تحت مِطرقة العنف... الظّاهر أنّك لا تعرف عن تأريخ أتباع أهل البيت عليهم السلام الكثير؟
- لا يا حاج، معرفتي قليلة جدًّا وأغلبها تولّدت من رفقتي للمهندس سليم...
- على كلّ حال يا ولدي، سأقصّ عليك مناشئ العنف الأخيرة

التي أكلت مني منابت حبّي في الأرض: أولادي وأحفادي...

تنزّ من عيني الشيخ دمعتان من دون رجفة جفن...

- أعتذر يا حاج إن تسبّب لك بتجديد الحزن...
- لا عليك يا ولدي؛ فنحن نموت إن لم نحزن؛ فقوّتنا من حزننا...
- سبحان الله...
- يستحقّ التّنزيه... ربّ الجلالة...
- حدّثني يا حاج... لو سمحت...
- من عينَيَّ، ولكن أرجو ألّا أثقلَ عليك؛ فالحديث موجع يا ولدي...
- لا عليك... إذ اكتسبت من مجالستكم مناعة التّأوّه...
- حفظك الباري... اسمع يا ولدي، مدينة تلعفر مدينة ذات غالبيّة موالية؛ إذ يشكّل أتباع أهل البيت عليهم السلام نسبة ٦٠ ٪ من سكّانها، ويفصل بين المكوّنين وادٍ كان سابقًا نهرًا - هكذا سمعنا من أجدانا وإن لم نره -، ولكن كان التّعايش بين الطّرفين جميلًا طَوالَ السّنوات السابقة، وكأنّ دخول داعش كان سببًا لإظهار ما كان يضمر بعض القابعين في الطّرف الآخر؛ إذ تحوّل كثير منهم إلى دليل لعصابات داعش، بحيث يشيرون إلى بيوتنا والوجهاء منّا؛

وهم ملثّمون؛ لكننا نعرفهم من أعينهم؛ فالعِشْرة التي بيننا قديمة طويلة؛ فهي تحفظ للطّرفين؛ ليس المواقف، بل حتى الملامح... وهذا الأمر كان يؤلمنا أكثر من الخيانة نفسها... فالعشرة كما يقول المثل الدّارج : لا تهون على ابن الحلال - كما تعلّمنا من أهلنا السابقين -... وبعضهم كان أكثر جرأة من هؤلاء الملثّمين بحيث انتموا بملامحهم الظّاهرة بلا لثام إلى العصابات؛ فصاروا جنودًا في داعش، أو حتى أمراء، أو في أقل التقادير أئمّة في مساجدهم المفتية علنًا: جئناكم بالذبح...

يلتفت المترجم إلى المهندس :

- هل يعقل أن يخونَ الجار جاره؟
- قد حدثت يا عزيزي...

يقاطعهم الشيخ :

- ولكن ليسوا جميعًا؛ فمنهم الطيّبون الأمينون...
- حدّثني يا حاج عن التأريخ الذي قلت إنّه أوّل تواريخ أذيّتك المعاصرة...
- نعم، يا ولدي؛ لعلّ أكثر فاجعة هزّت مدينة تلعفر المسكينة كانت في تأريخ ٢٧ / ٣ / ٢٠٠٧ م ولهذه الفاجعة قصّة حزينة؛

ملخّصُها :

- أنّ أهل تلعفر تعرّضوا لموجات من التّآمر، وكان آخرها بيعهم لداعش؛ فقد كان موقعنا الجغرافيّ سببًا لمحاصرتنا، بحيث قطعوا عنّا الماء والدواء والغذاء؛ فبات الناس في مجاعة فجيعة؛ يُعاوِن بعضهم بعضًا، ولولا ما تدرّه مياه المستنقعات من لحم أبيض، والأرض من زرع أخضر، لصار كلّ شيء في المدينة رماديًّا...
- وقد استغلّ المتآمرون على هذه المدينة النابضة بالولاء لمحمد وآل محمد - اللّهمّ صلِّ على محمد وآل محمد - هذه المحنة فخطّطوا لأذى المدينة بنحوٍ أكبر ؛ ليأكلوا من أهلها بنحوٍ أكثر...
- وكيف يا حاج؟
- سأخبرك يا ولدي فلا تستعجل...
- على مهلك، وأرجو ألّا أثقلَ عليك...
- أبدًا يا ولدي... لأكملَ لك الحكاية... نعم، لقد استغلّ المتآمرون هذا العَوَز؛ فأدخلوا سيّارة حمل كبيرة من نوع سكانيا، وكانت في الظّاهر مليئة بالمؤونة من طحين وسكّر وزيت وغيرها من الحبوب والبقوليّات... وقد نادى سائقوها أن تجمّعوا يا قوم... فتجمّع القوم بكلّ براءة؛ مطمئنّين لسوّاق السكانيا على أنّهم

سوّاق خير...

- وحينما تجمّع الناس واكتظّ المكان، وبدأ السائقان بالتّوزيع... اهتزّ بيتي الذي كان يبعد عن التّفجير ٢٥٠ مترًا تقريبًا، وكأنّ الأرض تعرّضت لزلزال شديد... وتلا الرّجّة القصوى صوت دويّ انفجار عملاق... ركضت من مكاني فوجدت الأرض يبابًا ودخانًا... بحيث كان قرب المكان محلّ تصليح سيّارات كبيرة، وفيها (تورنه)؛ وهي ماكنة لتقطيع الحديد العملاق لم نجد لها أثرًا؛ إذ أذاب الانفجار وجود (التورنه)...

- يا الله، وكم كان الضّحايا؟

- الحصيلة المعلنة : تدمير ١٥٠ منزلًا بالكامل، حتى استحالت المنازل إلى عرصات خالية، و١٥٣ شهيدًا، وبعضهم لم نجد لهم أثرًا، وتقريبًا ٣٩٠ جريحًا بعضهم كانت إصاباتهم بليغة فَقَدوا بسبب الإنفجار أطرافهم، أو عيونهم، أو بعض أعضائهم...

باختصار... كان الحدث وكأنّه انفجار هوريشيما... ومن هنا بدأ العنف، كانت هذه البدايات، حتى استولى الدواعش على أرضنا بمساعدة بعض جيراننا الّذين لم يفصل بيننا إلا الوادي المتعرّج الذي خلّفه جفاف النهر الصغير...

الفصل السادس

(١)

لأنّ الوقت تأخّر أدرك المهندس سليم، والمترجم المرافق له، أنّهما مضطرّانِ أن يبيتا في معسكر النّازحين... لم يكن المترجم متذمّرًا كما ظنَّ المهندس... لأنّه يشعر بأنّه استكشف عالمًا فريدًا لم يكن يعرفه من قبلُ والمهندس أحسَّ لأول مرَّة بالأُلفة خارج ثكنته.

وهما يتجوّلان في المعسكر... حاول المهندس أن يبرّر ضرورة بقائهم في المعسكر؛ لأنّ الحركة عصرًا أو ليلًا غير آمنة ؛ من المقر القيادة وإليها؛ فالخفافيش تتحالف مع الكلاب ليلًا...

- لا عليك يا مهندس ،فوحقِّك أنا مستأنس بوجودي في هذا العالم الغريب بشموخه على الرّغم من مِحَنِهِ...
- هكذا نحن لا يعرفنا إلا من يقترب منّا...
- فعلًا...
- يا مهندس، أنا كنت في رغبة عارمة للاستزادة من الحاج نوّاب، ولولا أنّي أشفقت على سنِّه؛ فلم أرغب في تجديد جراحه؛ وهو

في هذا العمر الذي ينبغي لنا أن نضعَه في موضع الراحة لا الاستفزاز...

- صدقت يا أخي، ولكن هذا قدرنا فما بيدنا من حيلة...
- إذًا هل لك أن تعينَني على استذكار بعض الحوادث؛ فاطّلاعي ينفعكم؛ بحكم قربي من الفريق الأممي، وسأكون أمينًا في النّقل صدّقني...
- نحن على يقين تامّ أنّ الله سيكفينا شرّ الأشرار، وينزل علينا من بركاته تمام الأخيار، ورغبتك هذه تسعدني، وإن كنت لا أعوّل عليها من دون توفيق الله .
- وهل تظنّ أنّ انجراري نحو عالمكم كان عبثًا أو صدفة من دون توفيق ربّانيّ، صدّقني يا مهندس، وقد حدّثتك سابقًا، أنّ اكتشافي لمذكّراتك كانت بتوافق عجيب، ولم أكن مخطِّطًا له، واليوم تيقّنت أنّ ذلك التّوافق كان بمثابة توفيق ربّانيّ ليس إلا...
- الحمد لله...
- يستحقّ الحمد؛ فهل تتفضّل عليَ بالمعلومات...

في هذه الأثناء يصدر صوت غير طبيعيّ من امرأة مسنّة... يلتفت المترجم إلى مصدر الصّوت؛ فيرى العجوز ملقاة على الأرض؛

وهي تنحَب وكأنّها تحتضن قبرًا لعزيز... يحاول المترجم أن يقتربَ منها ليساعدها؛ لكنَ المهندس يمنعه :

- لا يا عزيزي، هذه العجوز فضّة، وقصّتها أغرب من الخيال...
- ما بها يا أخي ...
- قل ما الذي ليس فيها، فهي مليئة بالهموم والمصائب، وكلّ ليلة تترك مكان مبيتها وتأتي إلى العراء في المعسكر لتبنيَ قبور أولادها الثلاثة...
- أولادها الثلاثة ؟!!!
- نعم يا أخي شريف، أولادها الثلاثة الّذين ابتلعهم داعش في يوم واحد....
- يا الله... وكيف حدث ذلك؟
- لنصلْ إلى غرفة نومنا ونتحدّث هناك...
- كيف أصبر على ذلك؟
- لا عليك، إذ لم يبقَ الكثير... فخطواتٌ تفصلنا عن الغرفة...

(٢)

يدخل المترجم والمهندس إلى غرفة الضّيافة في معسكر النّازحين... ويتهيّأ المهندس لإعداد إبريق الشاي كي يبدأَ بسمرٍ أليم... سَمَر لا يرغب فيه؛ لأنّه يجدّد أحزانه، ولكنه جزء من ضيافة المترجم؛ فالضّيف يتدلّل على مضيفه، وإن كان في دلالِهِ الوجَعُ...

- باللهِ عليك يا مهندس ،اترك الشاي واشرع بقصّة العجوز فضّة؛ إذ كسر وضعها باب قلبي، ولن أستريحَ حتى أعرفَ معاناتها...
- لا تستعجلْ؛ فالقصص في معسكرنا كثيرة وأوجاعها كبيرة، هوّن عليك، وتعلّم منّا الصّبر ؛ فإنّ الله مع الصّابرين...
- لكن الصّبر مرّ...
- ومرارة الصّبر حلاوة للمؤمنين...
- غلبتَني يا مهندس... ولكني على نار كما ترى...
- إذًا احتضن الإبريق فلعلّ نارك تسخّنه؟..
- كيف يمكن لك أن تمزح، وأنت في عمق المعاناة؟

- يا أخي لقد اعتدنا عليها... ومن الواجب أن نحيا حياتنا على الرّغم منها...

ينتهي المهندس من إعداد الشاي... يسكبه له ولضيفه... وينظر إلى المترجم الذي يقرأ في عينيه الشوق لسماع قصّة العجوز فضّة...

- اسمع يا شريف،في بدايات استيلاء الدواعش على الموصل وضواحيها، اشتدّ الحال بأهلها وضاقت الأرض بما رحبت؛ إذ لا ماء، لا كهرباء، لا غذاء، وفوق هذا كلِّهِ حصار، وخوف، وقصف، ومفخّخات...
- يا الله ...
- نعم يا أخي... فبات الناس لا يعبأون بالموت، بل بعضهم صار يتمنّاه من فرط ما عانوه...
- وكيف بدأت قصّة العجوز؟
- هذه البداية يا شريف، ففي ليلة من ليالي الاحتلال الداعشي بلغ الأهالي أنّه لا بدّ من مرور المواطنين على دهوك من أجل تجديد بطاقة التّموين؛ كي يحصلوا على حصصهم ؛ فالموصل محتلّة، ولا يمكن للتلعفريين أن يبلغوها؛ فمالوا بمراجعاتهم إلى دهوك... وكانت العجوز فضّة بلا زوج؛ إذ فقدته في انفجار المدينة الكبير

عام ٢٠٠٧ م وبقيت تربّي أولادها الثلاثة (قنبر وقلندر وحسنين) حتى استوَوا شبابًا، وكانت وسيلة عيشهم الوحيدة هي سيّارة الأجرة التي كان يعمل بها ولدها البكر (قنبر) بدل أبيه المغدور؛ وقد طلبت العجوز في تلك الليلة المشؤومة أن توصِلَ ولدها قلندر الطّالب في المرحلة الثّالثة في إحدى كلّيّات جامعة دهوك لأداء أولى امتحاناته النّهائيّة، وينزل ولدها الأصغر حسنين في الدائرة المعنيّة بتجديد البطاقة، وريثما ينتهي الولدان من التزامهما يعمل على باب الله ولدها البكر (قنبر) في شواع دهوك سائقَ أجرة...

- وما الذي حصل؟بالله عليك.. عجّلْ فقلبي ينبض بسرعة عجيبة...
- في البداية سارت الأمور بسلام، وصل الثلاثة إلى مدينة دهوك... وقد أوصل قنبر أوّلًا أخاه الممتحن (قلندر) إلى الكلّيّة لئلّا يتأخّرَ، ثمَّ أوصل أخاه الأصغر (حسنين) إلى الدائرة المعنيّة... وانطلق على باب الله في شوارع دهوك... وفي الوقت المحدّد لاجتماعهم، عاد (قنبر) إلى (حسنين) أوّلًا؛ فوجده منتظرًا على باب الدائرة، ثمّ توجّه إلى (قلندر) الذي وجده هو الآخر منتظرًا على باب

الجامعة؛ وكلُّهم في سعادة غامرة؛ لأنّ (قنبر) اشتغل بأجرة طيّبة، و(قلندر) أجاب عن امتحانه بنحوٍ طيّب، أما (حسنين) فأتمَّ البطاقة وجدّدها وهي في جيبه...

- يا الله ...

- وعلى مشارف تلعفر كان الطّابور كبيرًا لدخول المدينة بسبب التّشدّد الأمنيّ كي لا يخترقه أحد الدواعش... ونظر قنبر إلى مؤشّر البانزين فوجده على وشك النّفاد... أنّب نفسه لأنّه لم يعبِّئ الوقود في دهوك، وليس أمامه إلا أن ينعطفَ قليلًا عن الطّريق الآمن، ويقترب من تخوم الموصل المحتلّة ليتزوّد بالوقود من محطّة التعبئة القابعة هناك، وإلا نفد الوقود منهم... طلب من أخيه قلندر أن يجلس محلّه في القيادة، وأخذ غالونًا فارغًا كي يجلبَ الوقود من المحطّة المشؤومة... إذ لا خيار أمامهم... أخذ الغالون وتحرّك باتّجاه المحطّة... وبقي الأخوَان ينتظران...

- فات الوقت ولا أثر لأخيهم... قلق (قلندر) على أخيه؛ فنوى النّزول لِلَحاق قنبر؛ لكن حسنين ترجّاه ألّا يلحقَ به؛ ففقدان أخٍ أهونُ من فقدان أخوَين... لكن قلندر أصرّ... فنزل.

- وبعد أمتار من تحرّكه باتّجاه المحطّة، سمع دويّ انفجار رهيب،

التفت إلى الخلف فوجد سيّارتهم تحطّمت إلى أشلاء والنّار أحاطت بالمكان... حاول أن يهرولَ باتّجاه أخيه... ففاجأتهم مجموعة من عصابة داعش كانت متنكّرة في سيّارات مدنيّة؛ فوجّهت فُوّهات بندقيّاتهم باتّجاه الناس، وما بين رصاصات داعش، ورصاصات القوّات الأمنيّة التي حاولت صدّ الهجوم تفجّر رأس (قلندر) في الهواء... ولم يَعُدْ إلى البيت أيُّ واحد منهم. ومنذ تلك الليلة المشؤومة خسرت العجوز فضّة أولادها الثلاثة وسيّارة قُوتِهم الوحيدة التي لم تكن مصدر رزق فحسب، بل ذكرى من رائحة الوالد الشهيد...

- يا الله، ما أقساها من قصّة، وما أقواها من مأساة... ساعد الله قلب العجوز الثّكلى... ومن حقّها أن تفقدَ عقلها من هذا الفَقْد...
- هذا نزر قليل يا شريف من هول ما عاناه أهلنا... فالمعاناة ديدن عيشنا ومن دونها لا نستشعر بطعم الحياة...

الفصل السابع

(١)

لأوّل مرّة منذ أكثر من سنة يبات المهندس سليم خارج ثكنته... ولأوّل مرّة ينام اللّيل بعينين غافيتين... استيقظ المهندس قبل الفجر على صوت انفجار ليس قريبًا جدًّا؛ فوجد المترجم يقظًا... :

- لِمَ لمْ تنمْ يا شريف؟
- لقد أقرحت قلبي بقصّة العجوز فضّة يا مهندس .
- لمْ تسمع بعدُ ما يقضُّ مضجعك؛ فكلّ ما سمعته كان هيّنًا لما ستسمع .
- وهل هناك أكثر فضاعة ممّا سمعت؟
- نعم، بل أدهى وأمرّ .
- يا الله، ما أشقاني... ما الذي دفع بي إلى ذلك؛ إذ كنت مرتاحًا بعيدًا عن حوادث الذّعر والحزن هذه؟
- هو توفيق إلهيّ كما قلت سابقًا؛ لتستشعرَ معاناة المعانين .
- ربّما...

ينهض المهندس من فراشه المتعكّر الذي لا يصلح للوسن أبدًا... ويوجّه الكلام إلى المترجم:

- أ تعلم يا أخي، أنّي لمْ أترك ثكنتي ليلًا منذ أكثر من عام، حتى لزيارة زوجتي في المعسكر الثاني للنّازحين .
- وهل يجوز الهجر في عرفكم؟
- لا يا أخي، أنا لا أقول إنّي هجرت زوجتي، بل أقول لا أزورها ليلًا؛ فأنا أزورها في النّهارات مرّات ومرّات...
- أها! فهمتُك، وأظنُّ أنّك اشترطت علي ألّا أجعلَك تبات خارج الثكنة في الحوار منذ أوّل اتّفاق .
- نعم...
- ولكن ما الذي دفع بك للمبيت هذه الليلة خارج الثكنة؟
- لأنّي وجدت فيك بعض حماسة الميساني والبصري.
- ومن هما؟.... الميساني والبصري؟
- إنّهما رفيقاي في الثكنة؛ فحميد الميساني، وسلام البصري كانا معي طَوالَ أشهر، لم ينزلا لبيتيهما؛ وهما من جنوبيِّ العراق، وكانا يتوسّلانني أن أتنازل لهما عن نوبة الحراسة اللّيلية كي يُحسنان جهادهما ويستشهدان؛ وهما مرتاحان لتلبية الفتوى المقدّسة، كما

ينبغي...

- شكرًا لثقتك بي...
- لا،هي ليست مجاملة؛ فكونك تندفع إلى تقصّي الحقائق وسط المخاطر، وتقنع فريقك للقدوم معك إلى الخطوط الأماميّة؛ فهذا فعل حميد جدًّا...
- لكنهم انسحبوا ومنحوني فسحة من الوقت ؛ كي أوافيَهم بالمعلومات، أعلمُ أنّ انسحابهم هو خوف على أنفسهم، ولكني إنشدَدتُ إلى مظلوميّتكم بنحوٍ غريب...
- وهذا ما أحسسته وقدَّرتُه فيك... والاّ كان بإمكانك أن تنسحب معهم...
- أ تعلم يا مهندس، أنّي لم أكن متعاطفًا معكم قطُّ، وأنا طريقتي مدنيّة لا أميل إلى التّديّن كثيرًا، ولكن هاجس الإنسانية هو الذي سحبني إلى استشعار معاناتكم والتفاعل معها...
- إن شاء الله تجد ما يرقّق روحك وقلبك، ويجعلك تميل إلى ما نميل إليه...
- ربّما...
- حاول النوم قليلًا؛ فأنا سأنهض لأؤدّي صلاة الفجر؛ فهي على

وشك الأداء...

- لا! لن أنامَ، بل سأنتظرك لتقصَّ عليَ ما كنت تنوي قصّه...
- هذه الحكايا لا تصلح وقت الفجر؛ فهي مؤلمة، ولا أريد إيلامك في بداية نهارك...
- لا عليك؛ فقد صرت مثلك لا أستشعر طعم الحياة إلا مع ملوحة الألم...
- لك ذلك... ولكن بعد الصّلاة، وبعد أن نأكلَ إفطارنا مع الشاي العراقيّ...
- لا بأس، وإن كان هذا التّأخير يزيد من حماستي ..
- وأنا أريدك أكثر حماسة طبعًا...

(٢)

ما إن انتهى المهندس من إفطاره حتى أحسّ بالمترجم شوقًا لبَدء الحديث... التفت إلى المترجم وبادره بالقول :

- يا عزيزي لم يكن عليك أن تقصّرَ من طعامك كي نبدأَ بالحوار؛ فالنّهار طويل والحديث أطول...
- فعلًا لم أرغب في الأكل، ولكن نزولًا عند رغبتك أكلت... وإلا فإنّي اكتفيت صدقًا...
- كلّ شيء ممكن أن يُجبرَ عليه الإنسان إلا الأكل؛ فهو بالرّغبة أليق...
- وكذلك المزاج لا يمكن أن يُجبرَ عليه الإنسان، وأنا مزاجي لسماعك أميل...
- على هونك يا عزيزي...
- بل على عجل... أرجوك...
- طيّب لا تهتم سنبدأ، امهلني- فقط- غسل يدي...

- على راحتك...

يدعو المهندس ضيفَه للجلوس خارج الغرفة ليستنشقَ الهواء النّقيّ... ويستمتعَ بمناظر السّماء الخلّابة... فجوّ شمال بغداد جميل لا يُفارق...يستجيب المترجم، ولكن يباغته بطلب البَدء بالحديث فور جلوسهما، يضحك المهندس:

- يا عزيزي، لمْ تستنشق الهواء، ولمْ تنظر إلى السّماء؛ فلِمَ العجلة؟
- عجلتي من حماستي، فابدأ رجاءً؛ إذ زدت حماستي بقولك: إنّ ما لم أسمعه أقسى ممّا سمعت؛ فما هو الأقسى؟
- هناك الكثير من الحكايا القاسية، منها كوارث الدواعش بنساء الإيزديات...
- أها، وما الذي حدث بالضبط؟
- ربّما سأصدمك بالرّقم ٦٤١٧؟
- وما هذا الرّقم؟
- هذا رقم ما خطفه الدواعش من الايزيديين في الشّهر الثّامن من عام ٢٠١٤ م حينما هاجموا موقع سكناهم في جبال سنجار...
- ومن أين لك بهذه الإحصائية، إذ أراك واثقًا من القول بها، وكأنّك من أحصاها؟

- لا يا عزيزي ،هذه الإحصائيات هي المعتمدة في مراكز البحوث والتصريحات الحكومية المعتمدة...
- أها... وهل أفراد هذا الرّقم كلّهم من النّساء؟
- لا أكثره من النّساء، ولكن فيه رجال وأطفال...
- ولِمَ يفعلون بهم ذلك؟فهم ليسوا من أتباع أهل البيت عليهم السلام كما أظنّ؟
- نعم، هم ليسوا كذلك؛ ولكنهم يفتون بكفرهم وكفر مَن يخالفهم في العقيدة والمذهب.
- وما قصّة النّسوة المخطوفات؟
- قصصهنّ كثيرة يا عزيزي، ولكني سأقصّ لك قصّة الإيزيدية المخطوفة (بهار) .
- وما تفاصيلها؟وكيف حصلت عليها ؟...
- هي نفسها التي قصّتها على شاشات الفضائيات، ونُشرت على مواقع الشبكة الدولية للمعلومات...
- أها... أتمم إذن...
- في الشّهر الحادي عشر من عام ٢٠١٥، بِيعَت بهار وأطفالها الثلاثة للمرّة الخامسة؛ إذ كانت واحدة من الكثيرات من النّساء الأيزيديّات اللّائي أسَرَهنَّ التنظيم بعد أن اجتاح قريتها في منطقة

سنجار في شماليّ العراق قبل ١٨ شهرًا من هذا التأريخ كما بيّنت لك ذلك قبل قليل. وتنتمي بهار إلى أقليّة دينيّة تعيش في العراق منذ ما يقرب من ستّة آلاف عام، أقصد الأيزيديّين.

- وما مصير أهلها؟
- نُقِلَ زوجُها وابنها الأكبر إلى جهة مجهولة. وتظنّ بهار أنّه قد أُطلِق الرصاص عليهما ودفنهما في مقبرة جماعيّة.
- ساعدها الله ...
- و تتذكّر بهار كيف كانت هي وأطفالها الثلاثة مصطفّين بجانب بعضهم في غرفة؛ وهم يبكون؛ فقد كانوا يظنّون أنّهم سينُحرون. لكن بدلًا من ذلك جرى بيعُهم. ومنذ تلك اللّحظة بدأت رحلتهم مع العذاب والرّعب.
- ما أشدَّ ما عانت هذه المسكينة ...
- وينقل عن بهار أنّها اضطرّت إلى خدمة مقاتلي داعش الّذين أصبحت ملكًا لهم. «إذ يذكر مَن سمعها مباشرة أنّه كان عليها أن تتصرّفَ كزوجة لهم متى يريدون. على الرّغم من ذلك كانوا يضربونها متى شاؤوا، كما تعرّض أطفالها الّذين تقلّ أعمارهم عن عشر سنوات للضّرب. وحطّموا وجه إحدى بناتها بعقب بندقيّة.

- وهل كان ذلك من زوج واحد؟
- لا ؛ فرابع «مالك» لها كان شخصًا تونسيًّا؛ اسمه أبو خطّاب. «مكثت معه في منزله، وبحسب ما نقلته كان يُعِيرُها للعمل في تنظيف قاعدتين لتنظيم الدولة الإسلامية. وتقول: في كلّ الأماكن التي كنت أذهب إليها للعمل كنت أتعرّض للاغتصاب".
- كيف يمارسون هذه الأفعال، ألَا يدّعون الإسلام، ودينهم يمنعهم من ذلك؟
- هذه أدلّة على أنّهم صنيعة للتّخريب، ولا صلة لهم بالإسلام؛ لا من قريب ولا من بعيد.
- وهل استقرّت بهار عند التّونسي أبي الخطّاب؟ .
- لا.. فهي بِيعت مرّة أخرى؛ إذ يروي مَن سمعها مباشرة: عندما كانت بهار وأطفالها في منزل أبي خطّاب، توقفت سيارة بيضاء ذات نوافذ سوداء أمام المنزل ذات يوم. كان السائق يرتدي ثيابًا سوداءَ؛ وله لحية طويلة، ولا يبدو مختلفًا عن أغلب مقاتلي التنظيم الآخرين... أيقنتْ بهار أنّها وأطفالها قد بِيعوا مرّة أخرى. صرخت في الرجل طالبة منه قتلها؛ إذ لم تَعُدْ تستطيع تحمّل المزيد. لكن ما حدث بعد ذلك غيّر كلّ شيء.

- وما الذي حدث فقد شوّقتني؟
- في أثناء مغادرتهم، قال السائق «أنا آخذكم إلى مكان آخر». لم تعرف بهار ما كان يحدث، ولم تثق بالرجل، وبدأت تشعر بقلق شديد. أوقف السائق السيارة، واتّصل بشخص ما بالهاتف. ثمّ سلّم الهاتف إلى بهار. كان صاحب الصّوت هو أبو شجاع، الرجل المعروف الذي رتّب إنقاذ الكثير من النّساء والأطفال الايزيديين. أدركت بهار حينها أنّ السائق قد اشتراها حتى تُنقَذَ هي وأطفالها أيضًا.
- جميل، وما الذي حدث بعد ذلك؟
- نُقِلت بهار إلى موقع بناء في مكان بالقرب من مدينة الرّقّة في سوريا. نزلت من السيارة وقيل لها: إنّ رجلًا سيأتي وينطق بكلمة السّرّ «سعيد»، ويجب عليها أن تذهبَ معه... وصل شخص على درّاجة ناريّة، ونطق بالكلمة. طلب الرجل من بهار وأطفالها الثلاثة أن يركبوا درّاجته النّاريّة، وقال: «اسمعوا، نحن في منطقة سيطرة التنظيم، هناك نقاط تفتيش. إذا طلبوا منك أيّ شيء، لا تتحدّثي بكلمة واحدة حتى لا يعرفوك بسبب لَكْنَتِك المميّزة"... وقد أخذهم الرجل إلى منزله: «لقد كانوا لطيفين

معنا. تحمّمنا وقدّموا لنا الطّعام والمسكّنات، وقالوا: أنتم الآن في أيدٍ أمينة".

- وكيف وصلت إلى المكان الآمن الأخير؟
- بعد ما ارتاحوا قليلًا... التقطَ رجل آخر صورًا لبهار وأولادها، وأرسلها إلى أبي شجاع ليبرهنَ أنّهم عنده. ثمّ في ما يقارب السّاعة الثّالثة صباحًا من اليوم التّالي، جرى إيقاظ الأسرة، وطلب منها الاستعداد للتّحرّك مرّة أخرى. أعطى الرجل الذي كانوا يقيمون في منزله بهار بطاقة هُويّة والدته، وقال لها: إنّه في حال توقيفهم والاستفسار عن هُويّتها ووجهتها؛ فعليها أن تقولَ: إنّها تصطحب ابنها لزيارة الطبيب. وقد مرّوا بالكثير من نقاط التفتيش التابعة لتنظيم الدولة الإسلامية؛ لكن لم يوقفهم أحد. وأخيرًا وصلنا إلى قرية على الحدود السورية- العراقية، وكان في استقبالنا أبو شجاع وشقيقي، وشعرت بأنَّ الحياة عادت إليَّ من جديد بعد أن فقدت طعمها .
- يا لها من حكاية موجعة ؛ إذ كيف يسوّغ للإنسان أن يستعبدَ أخاه، وكيف له أن يجرم بحقّ النّساء الرّقيقات بهذه الطّريقة البشعة...
- هذا بعض ما أجرمه الدواعش يا عزيزي في حقّ الإنسانيّة جمعاء؛

لا أتباع أهل البيت عليهم السلام فحسب ؛ فهم صنيعة تخريب كما قلت لك؛ وليس تنظيمًا دينيًّا سويًّا .

- قاتلهم الله...
- اللّهمَّ آمين...

الفصل الثامن

(١)

حينما انتهى المهندس سليم من حكايا الإيزيديين دعا المترجم للعودة إلى ثكنته بعد أن يوصلَه إلى المقر القيادة... لكن المترجم رفض أن يترك مرافقته وألحّ عليه أن يأخذَه إلى ثكنته... لكن المهندس رفض رفضًا قاطعًا، وأخبره بأنّ هذا الفعل سيعرّضه للمساءلة القانونيّة لو جرى له شيء لا سمح الله... لكن المترجم ألحّ عليه :

- إن لمْ تأخذني إلى الثكنة؛ فرافقني للمقر، وعليك المبيت الليلة معي.
- يا عزيزي، لقد تركت الثكنة ليلة الأمس من أجلك؛ فلا تحرجني أكثر؛ لأنّ شَرطي عليك ألّا تشغلني عن ثُكنتي ليلًا أبدًا...
- نعم، حصل هذا، ولكنك لم تشترط علي ألاّ أبات معك في الثكنة؟
- هذا الأمر لا يحتاج إلى اتّفاق، بل هو تحصيل حاصل؛ فأنت ضيف ولست مقاتلًا؛ فكيف ترافقني إلى حدود النّار؟
- بالله عليك أخترْ واحدًا ممّا طلبت .

- لا يا عزيزي... لا تضعني في حرج رجاءً ...
- كما تركت الثكنة لِلَيلةٍ من أجلي، اسمح لي أن أتركَ راحتي وأبات معك في الثكنة لِلَيلة واحدة فحسب...

يتأمل المهندس في رجاء المترجم، ويتأمل في حماسته لمرافقته... يستشعر المترجم أنّ المهندس مال للرّضا؛ فيبادره :

- بالله عليك وافِقْ...
- حسنًا لِلَيلة واحدة فحسب، ولا تحرجني أكثر...ولكن ما الذي يدفعك أن تخوض هذه المغامرة، فلا تنسَ نحن في مواجهة كائنات حتى الحيوانات تأنف من نسبتها إليها؟
- لم يُطل المترجم في استمهال المهندس على جوابه، بل كان حاضرًا وكأن المترجم شريف كان مستعدًا، أو متهيئًا لهكذا سؤال...
- يا عزيزي سليم، المشتركات الإنسانيّة وثيقة جدًّا بالضبط كالمشتركات الشريرة بين السيئين، ألم تخبرني عن أنّ الدواعش جاؤوا من بلدان شتّى؟...
- نعم، أخبرتك بذلك، وهو معلوم عند الجميع.
- هل تدلّني على العلاقة الوثيقة بينهم، ما سرّها؟ وهم من بلدان شتّى، وألسنة مختلفة، حتى أنّ بعضهم لا يعرف لغة الآخرين من

المنتمين إلى التنظيم؟.

- برأيك ما هي العلاقة الوثيقة؟...
- إنها علاقة (المشتركات الشريرة) الوثيقة، وفي المقابل صارت بيني وبينك علاقة (المشتركات الإنسانية) الوثيقة التي تدفعني للمشاركة معك و لليلة واحدة همّك وغمّك ومعاناتك.
- يتأمل سليم بكلام المترجم فيراه حجّة ناهضة... يتبسّم بوجهه ويقول له...:
- أقنعتني... فعلى بركة الله...
- أشكرك شكرًا كبيرًا...
- تشكرني على ماذا؛ فأنت ذاهب لمجازفة نسبة النجاة منها تعادل نسبة عدم النجاة؛ فالاحتمالات في مواقفَ كهذه معدومة...
- يا أخي ما عادت النجاة هدفي، بل استقصاء الحقيقة أضحت مبتغاي...

ينطلق المهندس بمعيّة المترجم باتّجاه الثكنة... لم يستشعر المهندس ضيقًا بوجود المترجم معه؛ لأنّ الحميميّة بدأت بينهما لحظة استشعار حماسة الميساني والبصري في مواقفه...

كان الطّريق إلى الثكنة لهما بمثابة النّزهة؛ لأنّهما راغبان في المكان

كرغبة الذّاهب إلى دار استراحة... هكذا تفعل الحماسة بأهلها حين تكون حقيقية وصادقة ...

بعد مدة من السير غير الوجيزة تزداد شهية المترجم شريف لسماع المزيد من الحكايا، فهو اعتاد على مواجعها كي يستشعر بيومه... يبادر المهندس بطلب الحديث عن حكايا أخرى .

يلتفت سليم إلى المترجم مستغربًا من فرط شهيته لسماع القصص المؤلمة... خاصّة هما في طريق أقل ما يوصف به : أنّه طريق الموت... :

- يا شريف، ألا تشعر بقليل حيال سيرنا في هذا الطريق، ألا تعلم بماذا يصفه العراقيون والداعشيون ؟...
- بماذا يصفونه ؟...
- يصفونه بطريق الموت...
- وهل في الوصف جديد .. نحن على موعد معه في أي لحظة من لحظات دخولنا العراق....
- يا شريف، نحن نستشعر هذا الشعور، وهو أمر طبيعي؛ لأنّا أصحاب المعاناة والمأساة، ولكن من أين جاءتك هذه الحماسة وأنت لست منّا ؟...
- جاءتني منذ أنهيت قراءة مذكّراتك... فالحميّة تعدي كالداء

الحميم...

- وهل هناك داء حميم ؟...
- نعم بإدمان القراءة داء، ولكن داء حميم...
- على ذكر القراءة يا شريف هل سمعت بما فعله الدواعش في مكتبات الموصل ؟...

يتحفّز شريف لشرارة هذه القصة... يطلب منه بشدّة قصّها عليه... :

- حينما دخل الدواعش مدينة الموصل... من أوائل ما استهدفوه هو مكتبة الجامعة التي تعدّ من أقدم المكتبات الجامعية في العراق ومن أضخمها... وقد نشرت شبكة سكاي نيوز الإخبارية على لسان مدير مكتبة جامعة الموصل أنّ ما تمّ حرقه وإتلافه وتدميره من كتب الجامعة ووثائقها التاريخية ومخطوطاتها يقدّر بمليون كتاب ووثيقة ومخطوطة...
- يا الله، مليون ؟... هذا رقم كبير...
- نعم يا عزيزي... فهذه الوحشية ليست غريبة على الدواعش فهم من سلالة المخرّبين على مدى التاريخ...
- ماذا تقصد بذلك ؟...

- أقصد أنّ المخرّبين في كثير من حملاتهم على تدمير الشعوب المتحضّرة يقدمون على تدمير مصادر ثقافتهم ومعارفهم، فالمخرّبون دومًا من سلالة الجهلة وأعداء العلم والمعرفة...
- أها... وهل حدث مثل هذا في العراق؟
- نعم لقد حدث مثل ذلك في نهاية العصر العباسي حينما سقطت بغداد على يد المغول عام ٦٥٦ هجري من أشنع الجرائم في تاريخ الفكر الإنساني، لكونها أعظم مكتبات الدنيا آنذاك، حيث جمعت فيها مختلف أنواع العلوم والآداب والفنون.
- وماذا حدث ؟...
- حدث أن حرق المخرّبون من المغول وأعوانهم الجهلة كتب المكتبات العباسية، ورمي كمّ كبير منها في نهر دجلة، حتى أنّ المؤرخين قالوا قد تغيّر لون ماء نهر دجلة من حبر الكتب التي ألقيت فيه...
- أتدري أنَّ للمغول طريقًا في تلعفر مدينتي المنكوبة؟
- أحقًّا ما تقول ؟...
- نعم، واسمه (تيمور يولي) وهو مصدر شؤوم في مدينتنا... وكأنّ أهلنا في تلعفر يعلمون أن هذا الطريق سيكون منفذًا لمغول جدد

؟...

- ومن تقصد ؟...
- أقصد الدواعش... فهم فعلوا في بلدنا ما فعله المغول... حرقوا الكتب ودمروا المعارف...
- وما سبب ذلك برأيك؟
- السبب واضح ولا يحتاج إلى تحليل وكثير تأملٍ... فالكتب هي مصادر العلوم والمعارف، والمخرّبون يكرهون العلم والمعرفة لأنهما سلاح لا يقوون على مجابهته... فشياع الجهل هي وسيلتهم الكبرى لتحقيق أهدافهم...

(٢)

على الرّغم من مشقّة الطّريق وخطورته، انقضى الوقت بسرعة لانشغالهما بالحديث عن حكايا الألم في بلاد المواجع... بلغ الرّفيقان هدفهما المنشود... دخل الرّفيقان ثكنتهما... إذ لم يَعُد المترجم ضيفًا بعد حماسته منقطعة النّظير... بل بات شريكًا له فيها... حبًّا، وودًّا، وشغفًا...

- أين الخوف الذي حدّثتني عنه يا سليم في الثكنة؟
- الخوف ليس فِيّ، بل في من لا يستشعر عشق المكان .
- أتقصد أنّني عاشق؟
- ما دمت لم تَخَفْ من المكان فأنت عاشق...
- جميلة هذه الثّقة... والأجمل وثوقي...
- لا تستعجل؛ فالخفافيش لم تخرج بعدُ...
- هل تريد أن تختبرَ حماستي؟
- لربّما...
- فعلًا... أين بندقيّتا الشهيدين الميساني والبصري؟

- تمّ تسليمهما إلى مخازن الحشد .
- وكيف أدافع عن نفسي حين نتعرّض لهجوم؟
- لا تَخَفْ أنت بحمايتي .
- ولكني أريد الدّفاع عنك أيضًا .
- وما الذي يدفع بك إلى ذلك؟فأنت ضيفي والواجب عليَّ حمايتك؛ فما أمثّل لك أنا كي تجازفَ بالدّفاع عنّي؟
- أنت شاهد عيان الحقيقة في نظري، ومن الواجب أن أحميَ شاهد عيان الحقيقة التي أعتقد بها صدقًا ويقينًا...
- إن كان الأمر كذلك؛ فهذا سلاحي الاحتياط ضعه بيمينك...
- لا أستطيع...
- هل بدأ الخوف يدبّ فيك؟ أم أنت لا تتقن استخدام السلاح؟
- لا هذا ولا ذاك...
- ما السبب إذًا؟
- السبب أنّي لا أعتمد على يميني في الكتاب أو السلام، بل على شمالي...

تتعالى ضحكة حقيقية من داخل المهندس... تتبعها ضحكة أكثر حقيقة من المترجم... ويستمرّ رنين الضحكتين الصّادقتين لوقت

ليس بوجيز... :

- أ تعلم أخي شريف، أنّي لم أستذوق الضحكة منذ سنين....
- أما أنا ففقدتها منذ أن عثرت على مذكّراتك، وها أنذا أستعيدها حين عثرت على الحقيقة التي بحوزتك...

يستشعر المهندس أنّ حركةً للخفافيش الداعشية بدأت... يطلب من المترجم أن يختبِئَ جيّدًا لربّما ليست لديه مهارة كافية للتصدي...

يراقب المهندس الخفافيش الداعشية وكلابها بمنظاره الليلي... يتثبّت من تسحّب زواحفهم نحوه بِمكْرٍ... حذّر المترجم وأراه زحفهم بالمنظار...

بعد قليل... دخلوا في دائرة رصاصهم... فباغته المترجم باقتناص اثنين منهم بضربتين خاطفتين... فاستثمر الفرصة، واقتنص هو اثنين في الطّرف الثاني... فقد الآخرون توازنهم فهربوا، ومن ارتباكهم هربوا عن قيام لا زحف؛ فيسّر على المهندس ورفيقه اصطياد أربعة آخرين منهم، ولاذ مَن بقي منهم بالفرار...

بقي الرفيقان في ترقّب وبحث عن محاولة أخرى بالمنظار اللّيلي... مرّ وقت وهما في سكينة وبحث... حتى تأكّدا أنّ الخفافيش ولّت إلى جحورها، عادا إلى الحديث... :

- لِمَ بدأتَ بالتّصويب ولم تنتظرني؟
- لأنّي وجدت القادمين في مرماي، ومن الخطأ أن ينتظرَ الصياد فريسته أكثر؛ فلربّما يكون فريسة له إن اقتربت أكثر...
- وما كان شعورك لو فعلًا تمكّن منّا الدواعش؟
- سأكون سعيدًا لو انتقلت إلى العالم الآخر من ثكنة يحيا فيها المتنافسون على الشّرف...
- شعور جميل يا عزيزي شريف...
- لا تأخذني بالكلام، أنت وعدتني أن تحدّثني عن بقية الحكايا الليلة...
- سأحدّثك عن مجزرة إنسانيّة كبرى ارتكبها الدواعش في أوّل يوم من أيّام دخولهم البلد ولِمَ أجّلتَ الحديث عنها، وكان المفترض أن تحدّثَني عنها أوّلًا؟
- لأنّي استشعرت قوّة المذبوحين فيها الليلة فيك...
- لمْ أفهم .
- أقصد ما سمعته من شجاعتهم بالتّصريح بالانتماء إلى خطّ أهل البيت عليهم السلام؛ وهم يعلمون أنّ هذا التّصريح يمثّل سكّينة لنحرهم، مع ذلك صمدوا واستشهدوا ببسالة .
- حدّثني عنها؛ إذ شوّقتني...

- نعم!، ولكن بعد أن نشربَ شايًا بمناسبة نحر الدواعش الثّمانية الليلة...
- توكّلْ إذًا...

الفصل التاسع

(١)

على سخونة الشاي في ليل أيلول المائل للبرودة في العراء... بدأ المهندس سليم بتسخين المكان بحكاية مجزرة سبايكر :

- يا عزيزي شريف هذه المجزرة التي لا نظير لها في تأريخ الإنسانيّة هي مجزرة سبايكر.
- نعم، لقد سمعت بهذا الاسم... لكني أجهل التفاصيل الكاملة عنها...
- نعم يا عزيزي... جرت هذه المجزرة بعد أسْر طلّاب القوّة الجويّة في قاعدة سبايكر الجويّة من العراقيين في يوم ١٢ حزيران / يونيو / العام ٢٠١٤.. بعد سيطرة داعش على مدينة تكريت.. وبعد يوم واحد من سيطرتهم على مدينة الموصل؛ إذ أسروا ما بين ٢٠٠٠-٢٢٠٠ طالب.
- ولِمَ استسلم هذا العدد، ولم يقاموا؟
- يا لَلأسف تعرّضوا لخيانة؛ فبعد أن وعدتهم بعض عشائر هذه

المنطقة؛ ولا سيّما تلك التي تربّت على أيدي البعثيين والسلفيين التّكفيريّين بإيصالهم بأمان إلى حدود بغداد ..

- وهل استسلم الجميع؟
- لا بقي بعضهم في القاعدة بانتظار الدّعم، والحمد لله وصل إليهم الدّعم وانتصروا، ولكن بعد أيّام...
- وما الذي حدث مع المعتقلين؟
- قادهم المسلّحون من الدواعش وبعثيي العشائر... إلى القصور الرّئاسيّة في تكريت.. وقتلوهم هناك.. وفي مناطقَ أخرى رميًا بالرصاص.. ودفنوا عددًا منهم؛ وهم أحياء... بحيث صارت دماء النّهر القريب من القصور الرّئاسيّة حمراء... ودفنوا بعضهم بمقابرَ جماعيّة إلقاءً، أو ردمًا؛ وهم أحياء.
- وكم كان عدد الضّحايا؟
- بلغ عدد ضحايا مجزرة قاعدة سبايكر بحسب وزارة الصّحّة العراقيّة ما يقارب١٩٠٧.
- وهل كانوا جميعًا من الموصل؟
- لا يا عزيزي، لم يكن منهم ولا جندي من الموصل...
- إذن لم قتلوهم؟

- لأنهم من القوات الأمنية التي لا يريدون لهم الحياة، فوجودهم يعني هناك من يقاومهم.
- وهل حدّدت وزارة الصحة العراقية احصاءً بنسب الضحايا موزّعة على المحافظات؟
- نعم فقد ذكرت أن أكثر المحافظات العراقية ضحايا في سبايكر هي محافظة ذي قار ومحافظة بابل.
- وكم كانت نسبة كلّ واحدة منهما؟
- كان عدد شهداء محافظة ذي قار من اجمالي شهداء سبايكر (٣٨٣) شهيداً أما محافظة بابل فكانت حصتها (٣٨٢) شهيدًا.
- يا الله... ساعد الله قلب آبائهم وأمهاتهم... ومن بعدهما من المحافظات؟...
- العاصمة بغداد كانت الثالثة، إذ كانت حصتها من اجمالي شهداء المجزرة (٢٩٢) شهيدًا...
- والبقية...؟
- كانت حصّة محافظة الديوانية (٢٥٣) شهيدًا، وحصّة محافظة كربلاء (١٣٢) شهيدًا وحصّة ديالى (١١٩)شهيدًا، وحصة محافظة النجف (٩٩) شهيدًا، وحصّة محافظة المثنى (٨٦) شهيدًا

وحصّة محافظة واسط (٨٠) شهيدًا وحصّة محافظة صلاح الدين (٢٦)شهيدًا وحصّة محافظة كركوك (١٧) شهيدًا، وحصّة محافظة ميسان (١٦) شهيدًا وحصّة محافظة البصرة (١٠)شهداء،وحصّة محافظة أربيل (٧) شهداء، وحصّة محافظة الأنبار (٢) شهيدان .

- يا الله... هي مجزرة وطنية بحقّ...
- هناك بعض الإحصائيّات من محافظات ليسوا من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام- كما تصفونها - ؛ فكيف حصل هذا؟ هل بالخطأ ؟.
- بحسب ما تناقله النّاجون؛ وهم قلّة قليلة، أنّ هؤلاء امتنعوا من التّبرّي من الجيش العراقيّ، وأصرّوا على الانتماء...
- على قلّتهم، ولكنهم شرفاء حقًّا...
- نعم! فليس أجمل من الشّهادة على الحقّ والمبدأ...

(٢)

أخذت الجلسة بين الرفيقين شيءٌ من الصّمت... يجهل الرّفيقان سرّه... كيف غشيهم... سيطر عليهم... لربّما كان ذلك بسبب زيارة أرواح شهداء تلك المجزرة لثكنتهم... فالشهداء أحياء يرزقون حتمًا...

- نظر المترجم إلى السّماء... تصفّح آفاقها... ثمّ نظر إلى المهندس؛ مبادرًا إيّاه بالقول:
- مؤكد أنّ أرواح هؤلاء الشهداء تحيط بالمكان...
- الشهداء أحياء وأحرار يقينًا...
- وهل يا ترى قُتل جميع من في المعسكر؛ ولا سيّما الّذين خرجوا...
- أنا أخبرتك أنّ بعض الطّلاب بقوا في المعسكر متحصّنين للدّفاع عن أنفسهم... ولكن الّذين اعتُقلوا استشهدوا، ونجا بعضهم بأعجوبة، وربّما أنجاهم الله كي يكونوا شهودَ عيان على ما جرى...

- سبحان الله... وهل تعرف تفاصيل بعض النّاجين؟
- نعم! ؛ فهناك ناجٍ التقت به كثير من وسائل الإعلام المحلّيّة، والعربية، والأجنبيّة؛ وقد انتشرت قصّته في الآفاق .
- قُصَّها لي إن كنت تعرفها؟
- نعم سأقصّها عليك حتمًا...
- سريعًا لطفًا... إذ تشوّقت للتّفاصيل...
- ظهر في وسائل الإعلام، وأكّدت الجهات الحكوميّة صحّة انتماء هذا الطّالب إلى قاعدة سبايكر، شاب اسمه علي حسين كاظم، وقال إنّه كان من ضمن الّذين صدّقوا بوعود العشائر البعثية التي اقتادتنا خارج المعسكر... وما إن دخلنا القصور الرّئاسيّة حتى صنّفونا على صنفين، وفقًا لانتمائنا إلى خطّ أهل البيت عليهم السلام، وكان المنتمي لسوانا في منجًى؛ ما إن يُعلن تبرّيَه من الحكومة والجيش العراقيّ... أما نحن فليس لنا توبة، بل القتل مصيرنا .
- ما هذه الازدواجيّة؟!
- هذه معايير الصّنيعة المزدوجة يا عزيزي؛ فكيف تطلب الإنصاف من قوم لا يعرفون شكله أو لونه أو رسمه؟!
- حقًا... وماذا حدث بعد ذلك؟

- يقول النّاجي (علي حسين كاظم) إن زملاءه كانوا يُقتَلون أمام عيونه؛ وهو مكتوف الأيدي ومنزوع السلاح، وحينما حانت نوبتي، وكنت الرّابع من الصّفّ الذي اقتيد إلى جرف النّهر من حدود القصور الرّئاسيّة، ومن حسن التّوفيق أنّ الطّلقة التي وجهها القاتل الدّاعشي إلى رأسي لم تصبه بل مرّت من جانبه، ولكن ما أوهمهم أنّ الدّماء كانت على رأسي من جرّاء تعذيبهم لنا بالضّرب المستمرّ...
- يعني أنّه لم يُصَب؟
- نعم! فهو يروي ذلك في أحد تصريحاته : جعلنا الدواعش يمسك أحدنا بالآخر، وجلسنا منتظرين الموت لقد كنت الرّابع في الصّف، وحين أطلقوا النّار على الجندي الأوّل لم أعد أشعر بشيء وفكرت بعائلتي وابنتي الصغيرة فقط، وماذا يحلّ بهم، ووصلت الدّماء وجهي، وقتلوا بعدها الثاني والثّالث، وحين بلوغ دوري لم أعرف أين ذهبت الرصاصة لكنها لم تصبني إلا أنّني تظاهرت بالموت، وبقيت على حالي حتى حلّ الظّلام.
- وماذا حدث بعد ذلك؟
- بحسب ما تناقلته وسائل الإعلام على لسانه أنّه انتظر نحو أربع

ساعات على جرف النّهر حيث سقط، منتظرًا حلول الظّلام وقطع مسافة ٢٠٠ متر متجّهًا نحو نهر دجلة ولمّا وصل النّهر وجد جريحًا يدعى عباس؛ وهو سائق في معسكر سبايكر أطلق عناصر "داعش" عليه النّار، ودفعوه إلى النّهر، ولم يمت كذلك .

- وماذا حلّ بهما؟
- أكّد النّاجي أنّه ظلّ مختبِئًا لثلاثة أيّام اقتات فيها على الحشرات والنّباتات، ورسم مخطط هروبه، وحينما قرّر مواصلة المسير امتنع عبّاس عن مرافقته؛ لأنّه كان لا يقوى على الحركة بسبب كسر أضلاعه من وقع السّقوط على جرف النّهر، وطلب منه ألّا ينساه وأن يخبر أهله والناس بما حدث.
- وهل ترك النّاجي علي رفيقه عبّاس، وواصل المسير؟
- نعم! لأنّه لا يقوى على حمل رفيقه المصاب، وكان يخشى أن يكتشفَ الدواعش مكانه.
- وهل كان الطّريق خطرًا أم يسيرًا؟
- من المؤكد أنّه كان خطِرًا؛ وقد نقلت وسائل الإعلام على لسان النّاجي علي حسين كاظم أنّه واجه صعوبة كبيرة في عبور نهر دجلة، وسار مسافة طويلة بمحاذاته حتى وجد منطقة أقل خطرًا

إلى أن عبر النّهر بحذر كبير، ولم يرفع يديه فوق المياه خوفًا من أن يراه عناصر داعش.

- وهل نجا وحدَه .
- لا! فالدّنيا إن خليت قُلبت؛ فهناك بعض الشّرفاء الذي ساعدوه على النجاة؛ إذ يذكر أنّه توصّل إلى مساعدة غرباء عبر أربعة مواقعَ، وبعد ثلاثة أسابيع من المذبحة تمكّن أخيرًا من الوصول إلى عائلته.
- ما أقساها من مشاهدَ، وما ألذّها من نجاة...
- هذه مجزرة فريدة يا شريف...
- نعم، فريدة ببشاعة منفّذيها، وصلابة شهدائها...

الفصل العاشر

(١)

بعد ليلة حماسيّة ترافَقَ فيها المترجم والمهندس في حراسة الثكنة... اقترب موعد يقظة المهندس النّهاريّة عند حلول الظّهر...

استيقظ المترجم فلم يجد المهندس قربه... نهض بتؤدة كي يعاينَ المكان... وجد المهندس على مقربة منه؛ وهو يعدّ الطّعام لهما...

ينهض بكامل قوامه ويتوجّه إلى المهندس... يلقي التّحيّة... يبادله الكلام:

- ما زال ألم الفجيعة في قلبيَّ وذهني من قصّة سبايكر يا سليم منذ أمس...
- أنا... مرارتها في قلبي وروحي منذ سنين... هكذا هي حياة المستضعفين في الأرض، ولكن لهم الغَلَبة في الختام بإذن الله...
- وهل يمكن أن تكونَ هناك حادثة أقسى من هذه؟
- في العراق أم في سواه؟
- في أيّ مكان كان...

- نعم! هناك ما هو أقسى .
- أين بالله دلَّني؛ إذ لم أسمع بأبشعَ منها .
- في العراق أيضًا .
- في العراق؟
- نعم، وعلى يد تنظيم داعش كذلك...
- بالله عليك؟
- نعم، فداعش صنيعة شرٍّ لا تنتهي، تمّ برمجتها على العنف وصناعة الذّعر، والهلع، والحزن، فالحياة معهم سيرة جمر...
- حقًّا هم كذلك... ولكن ما الذي حدث بنحوٍ أقسى من مجزرة سبايكر؟
- إنّها وقيعة الخسفة....
- وما هذه الوقيعة يا سليم؟
- فلْنتغدَّ وبعدها نكمل الحديث .
- ولِمَ لا نتحدّث، ونحن نتغدّى؟
- وكيف يمكن أن نستذوقَ حلاوة الغذاء؛ ونحن نتجرّع مرارة البلاء؟
- أعنّي..؟ لا فرق فأنا فقدت الشّعور بلذّة كلّ شيء بعد أن خالجني

طعم الحقيقة التي كنّا نجهلها...

- لا يا عزيزي ؛ فالحديث بما يحزن على الطّعام يُقسّي القلب؛ هكذا أدّبنا علماؤنا.
- كما تُحبّ يا عزيزي .
- نعم! ننتهي من الطّعام، ونخوض في أحاديث البلاء والحزن التي لا تنتهي...

(٢)

حاول المترجم شريف أن يتماسكَ، ويضغط على حماسته لئلّا يزعجَ سليم بطلباته... إذ صمت عن الطّلبات الحواريّة بعد مساجلة ما قبل الغداء...

انتهى الرّفيقان من الطّعام... توجّه المهندس سليم إلى تسخين الشاي... سكب ما سخن منه في الكأسين... ونظر إلى المترجم :

- ما لي أراك عديم الحماسة؟
- عاهدت نفسي ألّا أضغطَ عليك، وأتركك تبدأ بالحديث متى شئت .
- عهد طيّب، ولك عليَّ ألّا أُقَصّر في تبيان ملامح الحقيقة الخفيّة عنك ما استطعت...
- نبدأ بالحديث عن الخسفة الآن؟
- على الرّحب والسّعة...
- هيا إذًا...
- نعم يا عزيزي، فالخسفة، أو ما يعرف محلّيًّا الخفسة، هي عبارة

عن حفرة جيولوجيّة عميقة، تقع على بعد نحو ٢٠ كيلومترًا إلى الجنوب من الموصل (مركز محافظة نينوى شماليّ البلاد)، وتعدّ واحدة من الأماكن الطبيعية التي استغلّها الدواعش؛ ليصيّروا منها مقابرَ جماعيّةً .

- وكيف ذلك؟
- الفسحة عبارة عن فُوَّهة كبيرة على شكل حفرة إستغلها تنظيم الدولة لتغييب جثث ضحاياه فيها حين سيطرتِه على الموصل منذ يونيو/ حزيران ٢٠١٤ .
- ما أبشعَهم ؛ فهذه ليست جريمة إنسانيّة، بل جريمة بيئة كذلك؛ إذ كيف يلوّثون الطّبيعة بهذا الشّكل، وبِمَ يلوّثونها؟يلوّثونها بدماء الأبرياء، قاتلهم الله...
- نعم يا عزيزي : جعل تنظيم داعش الإرهابي من هذه الحفرةَ مقبرةً جماعيّة للمحكوم عليهم بالإعدام في مدّة احتلالهم .
- ولِمَ عددْتَ هذه المجزرةَ أقسى من سبايكر؟فهل عددهم أكثر؟
- نعم يا عزيزي، فبحسب الإحصاءات من داخل وثائق داعش، ومن طريق شهود عيان؛ فإنّها تعدّ إحدى أكبر المقابر الجماعيّة في العراق طَوال تأريخه. ويقدَّر عدد المدفونين فيها قرابة خمسة وعشرين ألفَ شخصٍ في مقبرة الخسفة ممّن أُعدموا على يد

الدواعش فقط .

- خمسة وعشرون ألفَ شهيدٍ ومغدورٍ ؟...
- نعم خمسة وعشرون ألفًا...
- يا الله!!... ما أكبرَها من جريمة، وما أتعسَ مَن نفّذها...

الفصل الحادي عشر

(١)

في ليلة أخرى من الحماسة اللذيذة التي استشعرها المترجم شريف... كان على موعد مع صباح مربك... إذ بُلِّغَ المهندس على جهاز مناداته خطابًا غير مريح من قائده... استشعر إحراج سليم من ملامحه...

- أعتذر يا عزيزي.... إن تسببت لك بإحراج .
- لا عليك، يا شريف؛ فالحزن رفيقي .
- سمعت بعض عبارات التّعنيف من قائدك... فهل أنا على صواب؟
- نعم... على صواب .
- وما سبب ذلك؟
- يسألني عنك .
- وما أدراه بأنّي في الثكنة معك؟
- لأنّه قلِقٌ على أنّنا لم نحضر إلى مقر القيادة بعد مغادرة معسكر

النّازحين...

- هل أخبرهم أحدهم أنّنا خرجنا؟
- مؤكد ذلك؛ فعلى قيادة المعسكر أن تبلّغ قيادة العمليات عن تحرّكات الضّيوف؛ فأنت تنتمي إلى فريق أممي، ومن مسؤوليّتنا حمايتكم...
- وبِمَ أخبرته؟
- أخبرته بالصّدق؛ فنحن أتباع مبدأ: النجاة في الصّدق .
- وما كان رده حين علم أنّي معك في الثكنة؟
- عنّفني، ووبّخني؛ لكني لم أنزعج، أتعلم لِمَ؟
- لِمَ؟
- لأنّك أقنعتني بمبدأ البحث عن الحقيقة، وجعلتني أؤمن بحماسة الباحثين عنها .
- يعني أنت لم تنزعج مني؟
- أبدًا... فأنت أعدت إليّ حماسة رفيقي اللّذين أفتقدهما كثيرًا : حميد الميساني، وسلام البصري...
- ما أسعدَني أنّي كذلك ؛ فمشابهة الملائكة سمة مشرِّفة...
- وأنت تستحقّ أن تكونَ كذلك؛ فمطاردة المستضعفين لنصرتهم

سلوك ملائكيّ...

- والشهادة على قولكم كعرس عفيف أيضًا...

حينما سمع سليم بلفظة (عرس) أخذته موجة وجوم استشعرها شريف بحرارة... وللحظات سيطر الصمت على المكان... ولم يكسره سوى حديث المترجم شريف... :

- هل آذاك كلامي ؟...
- أبدًا... بل أيقظني...
- ولكن لماذا شعرت أنّك تأثرت بكلمة (عرس)... هل تذكرت أيام عرسك ؟...
- لا يا عزيزي، فعرسي كان تقليديًا جدًّا...
- إذن لماذا تأثرت ؟...
- تأثرت ؛ لأنّك ذكّرتني بقصة عرس الأحزان...
- عرس الأحزان ؟... بالله عليك : هل دائمًا كلّ شيء لديكم مقلوب، فالعرس عادةً يكون للأفراح، فكيف صار عندكم للأحزان ؟...
- على قولك : كلّ شيء لدينا مقلوب ؛ لأنّ المخرّبين لا يجلعون الأمور تمشي كما ينبغي أن تكون، فهم يضعون أيدي الخراب

فيها...

- ولكنك لم تجبني كيف صار العرس للأحزان عندكم ؟...
- للحقّ ليس جميع أعراسنا للحزن، ولكن لحادثة كبيرة جرت في تلعفر على أيدي زمر الداعشيين جعلت من العرَس للفرح ؛ عرس حزنٍ...
- أها... وكيف ذاك حدّثني بالله عليك...
- في صبيحة عيد الغدير الذي نحتفل فيه نحن اتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام ؛ لأنّه يوم تنصيب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ؛ وصيًا وخليفةً للنبي الأكرم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، نفرح... نبرز مظاهر السرور... وعادةً ما يكثر فيه الزواج للتبرّك بخير هذا اليوم المبارك...
- جميلة هي شعيرة إحياء الأحداث المهمّة في سيرتكم... فهي ليست زمن للتذكّر بل للتعلّم من عِبرها وللتدبّر كذلك...
- نعم يا عزيزي شريف... وفي عيد غدير سنة ٢٠١٥ كانت تلعفر على موعد مع عرس (جمال) ابن كبير حيّنا الحاج علي الصفّار ؛ وقد تهيأ الجميع للفرح والسرور مرتين ؛ مرّة لذكرى التنصيب المباركة، ومرة لقيام حفل العرس؛ فالحاج علي الصفّار من وجهاء

الحي ومن الرجال المحبوبين الذين تفضّلوا على كثير من أهالي تلعفر بالبركات...

- إلى الآن الأمور طبيعية يا سليم...
- نعم إلى الآن الأمور طبيعية وتسير على وفق ما مرسوم لها في ذهنية الطيبين من أهالي تلعفر، ولكن هناك رسم آخر تُخطط له خفافيش داعش السوداويّة...
- وبماذا كانوا يخططون ؟...
- كانوا يخططون إلى مهاجمة العرس،ولكن إصرار بعض الشباب المندفعين لضرورة التبرّك بزيارة سبع الدجيل عليه السلام جعلهم يغيّرون خطّتهم...
- ومن هو سبع الدجيل ؟...
- سبع الدجيل هو أحد ذراري أهل بيت النبوة عليهم السلام هو أبو جعفر محمد بن علي الهادي سبع الدجيل، وُلد حوالي عام ٢٢٨ هـ، تُوفي سنة ٢٥٤ هـ، وهو ابن الإمام علي الهادي عليه السلام...
- ولماذا أصرّ الشباب على زيارته ؟...
- في أعرافنا نحن أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام التبرّك بزيارة مراقد أئمة أهل البيت عليهم السلام وكذلك الأولياء من حواريهم رضوان الله

تعالى عليهم ليال العرس أو بعده؛ إذ نعتقد أن البركات تحيط بمراقدهم ؛ لأنّها بيوت الله سبحانه وتعالى، وباب من أبواب رحمته...

- ولماذا سبع الدجيل بالذات ؟...
- بعد سيطرة تنظيم داعش على المناطق الحيوية في الطريق إلى المراقد المقدّسة في بغداد، وكربلاء المقدّسة، والنجف الأشرف، مال أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام في تلعفر إلى زيارة سبع الدجيل عليه السلام ؛ لأنّها الأقرب، ونوعًا ما الطريق إلى مرقده المبارك آمنة...
- وما دامت آمنة، ما الذي حدث بعد ذلك ؟...
- إذا انتبهت إلى توصيفي فإنّي قلت نوعًا ما آمنة ؛ لأنّ بعض القرى الواقعة على الطريق إلى المرقد المبارك لسبع الدجيل عليه السلام كانت بيد داعش أو ميّالين إلى عقيدتهم...
- أها... فهمت أتمم الحكاية...
- وعلى الرغم من تحذير الحاج الصفار، وكبار الحي من خطورة ذلك غير أنّ الشباب اندفعوا، ولم يرغب الكبار بكسر حماستهم، فوافقوا على مضض، ورافق موكب العرس بعض المسلّحين من شباب الحي... ولكن على الرغم من وجود المسلّحين مع موكب

العرس كان الداعشيون مستعدين استعدادًا كبيرًا...

- وماذا فعلوا ؟...

- تعرّضوا لموكب العرس بعد ان ابتعد عن تلعفر كثيرًا، فالطريق إلى المرقد المبارك يستغرق أربع ساعات تقريبًا، بحيث أمن الداعشيون أن تعزيزات الدفاع عن موكب العرس لن تصل إلى موقع الحادثة، حين ذاك انقضّ الداعشيون كالذئاب على موكب الفرح البريء، وبعد أن صفّى الداعشيون جميع المسلّحين من الشباب، استفردوا بالنساء والأطفال... وهنا أحدثوا مأساة إنسانية لا أستطيع أن أقص تفاصيلها بالدقّة لأنّها بشعة جدًّا...

- يا الله، ما الذي فعلوه ؟...

- سأقصّ عليك ما يمكنني قصّه... واعذرني عن البقية لأنّي لا احتمل الحديث عنها ؛ لبشاعتها...

- لك ذلك... ولكن قصّها فما عدت احتمل...

- لقد قيّدوا النساء والأطفال ومن بقي من الشباب، وجعلوا العريس بوسط المقيّدين، وجعلوهم مصطفين على شكل دائرة، وجلبوا العروس ووضعوها وسط حلقة الدائرة... جرّدوها من ثيابها... من كامل ثيابها... ونزو عليها يضاجعونها فردًا فردًا

حتى ماتت من ألم الفاحشة... ووجع فعلتهم الشنيعة؛ فبربّك مَنْ تحتمل من النساء العفيفات فعل ٦٠ مجرمًا بها...

- يا الله، وماذا بعد ؟...
- بالنسبة للعريس لم يحتمل المنظر فقد فارق الحياة مع أول مجرم اغتصب عروسه... فهو رجل شهم غيور لا يحتمل أن يرى عِرْضَه هكذا يُفعل به...
- ما أبشعهم...
- أما بقية الشباب والنساء والأطفال فقد تمّ نحرهم واحدًا واحدًا... ولعلّ ذبح الأطفال والشباب أمام أمهاتهم كان لا يقلّ قساوة من فعل الفاحشة بالعروس أمام أنظار العريس...
- وهل فعلوا هذا حقًّا ؟...
- نعم لقد نحروا النساء آخر شيء؛ كي يكملوا استمتاعهم بمشاهد جريمتهم النكراء...
- قاتلهم الله... مجرمون... شياطين...
- سكت الجوّ برمته مع سكوت سليم... لم يستطع المترجم شريف أن يطلب من رفيقه مواصلة الحديث؛ لأن ما سمعه من بشاعةٍ تكفيه لأن يتألم الدهر كلّه...

(٢)

يتوجّه المترافقان حديثًا على طريق الألم والمحنة ؛ المهندس سليم والمترجم شريف، إلى المقر القيادة، فلم يعد وجود المترجم آمنًا بعد تلك الليلة... اضافة إلى توجيهات قائد العمليات بضرورة تأمين المترجم في مركز القيادة ؛ لئلا يعلم الفريق الأممي باصطحاب مترجمهم إلى حدود النار التي يحاسب عليها القانون الدولي...

في الطريق إلى مركز القيادة يسيطر الوجوم على الرفيقين ؛ بسبب استذكار حادثة (عرس الأحزان)، التي استكمل في وقوعها جميع أطراف الجريمة الإنسانية الكبرى...

بقي المترجم منبهرًا من وقع سماع هذه الحادثة التي لم يسمع بمثلها على مدار عمله المضني بتتبع المجازر والوقائع البشرية على أرجاء المعمورة... فهو زار فجائع الشرق الأقصى... ووقائع شبه القارة الهندية... ورزايا إفريقيا... وحوادث أمريكا اللاتينية... ولكنه لم يقف على رزية كـ «رزية» هذه الواقعة الأليمة...

في أثناء هذا المسير نحو المقر القيادة، والرحلة الحماسيّة التي استشعرها المترجم مع رفيقه الجديد المهندس سليم، يرنّ هاتف المترجم، ينظر إلى شاشة هاتفه؛ ليستعلمَ مَن المتّصل، يجده رئيس الفريق، يفتح الخطّ، ويبدأ الحوار... تتغيّر ملامحه كلّما طال الحوار...

- ما بك يا شريف؟
- رئيس الفريق يطلبني فورًا للعودة إلى بغداد؟
- لِمَ؟هل بلغه أنّك معي في الثكنة؟
- لا، يقول: علينا العودة إلى المقر الأمم المتّحدة لعقد سلسلة من المشاورات المهمّة، وعلي الالتحاق فورًا...
- عوّدتني على وجودك قربي يا رجل...
- وأنا كذلك تعوّدت على مرافقتك... سأشتاق إلى حواراتك...
- وأنا سأشتاق إلى حماستك...
- قريبًا نلتقي كي نكملَ مشورانا في توثيق الحقيقة الصّادقة...
- إن شاء الله تعالى... نلتقي وقد انتهينا من احتلال الخفافيش الداعشية لأرضنا ؛ كي أقصَّ عليك وقائع البطولات والنصر، بعد سلسلة المآسي التي مرّت علينا سابقًا...
- للحديث بقيّة إذًا...
- نعم يتّبع وبشدّة...